حياة ابن العديم

وآثاره

تأليف

الدكتور سامي الدهان

دمشق

١٣٧٠ - ١٩٥١

دمشق
١٣٧٠ - ١٩٥١

الإهداء

إلى أرواح العباقرة من حلب الشهباء

تجلّة البنوّة وتحية الوفاء

سامي الدهان

تمهيد — حياة الرجل — علمه وأدبه — آثاره ومؤلفاته — زبدة الحلب

« كان محدثاً فاضلاً ، ومؤرخاً صادقاً ، وفقيهاً مفتياً »
« ومنشئاً بليغاً ، وكاتباً محموداً ، ودرّس »
« وأفتى وصنّف ، وترسل عن الملوك ، وكان »
« رأساً في الخط لا سيما النسخ والحواشي . »

« ابن شاكر الكتبي »

تمهيد

التاريخ علم يصل الماضي بالحاضر ، وفنّ يدوّن قصة العالم على ممرّ الأجيال ؛ ودرس يعلمنا تفسير الحوادث وتهيئة المستقبل ؛ وعبرة نستخلصها من مخلفات الماضي وسجلاته .

والتاريخ علم نقد وتحقيق يعالج شئون الدنيا على ضوء التجربة والذكاء ، ويشرح تطوّر المجتمع الإنساني من حالته القديمة إلى حالته الحاضرة . عرفته الأمم منذ القدم ، وتداولته منذ العصور الأولى على أساليب وطرق تطورت مع الزمن . فلمّا أخذ به العرب جوّدوا فيه أيّما تجويد ، وعكفوا عليه منذ الجاهلية على شكل أشعار مقصدة وأخبار متفرّقة يتناقلونها رجلاً عن رجل . وحين جاء الإسلام التفتوا الى السيرة النبوية ، وتناولوا الحديث ، ودوّنوا الأنساب واختصوا بالأخبار ، فكان لكل قطر من الأقطار الاسلامية الهامة أخباريون سجّلوا ما مرّ بكل قطر من الأحداث وما كان فيه من وفيات .

وتطور التاريخ الاسلامي في القرن الثالث الهجري فاستخدم العهود الرسمية والمراسلات السياسية والمواليد والوفيات ، ووقائع الغزو في الصيف والشتاء ، واقتبس من أساليب الفرس واليونان والسريان وغيرهم حين ترجمت كتبهم إلى العربية . ودرجت القرون فتعددت التواريخ ، وكثرت المصادر حتى كان لنا منها عدد كبير ، وخزانة واسعة وصل أقلها وضاع أكثرها ، ولو وصلت كلها إلينا لكانت خيراً كبيراً ونوراً وفيراً . ولكن ظروف الزمان وتقلّب الحدثان

اختلفت عليها ، فتعاون الغبار والارضة ، والماء والرطوبة ، والجهل والإهمال على حرب هذه المخطوطات ، فتلف منها وفقد ، وضاع منها وفسد ، وطُبع منها في الشرق والغرب ما وصلت إليه أيدي الناشرين ، فظهرت في حلة متناسبة ومواطن النشر ، في تبويب متباين ودراسة مختلفة .

وما يستطيع الباحث في فروع المعرفة الاسلامية الآن أن يجيد الكتابة والدراسة وأن يبلغ فيهما ما يطمح إليه العالم الغربي ، إلاّ حين تظهر هذه المخطوطات على النور ، في حلل جديدة وطباعات محققة مفهرسة . وحينئذ تعم الثقة وتستنير جوانب البحث .

تلك طريقة الغربيين في أدبهم وتاريخهم ، وتلك طريقة المستشرقين حين يبحثون أدبنا وتاريخنا ، وهذه الطريقة نفسها سبيل أجدادنا القدامى، فقد سبقوا الغربيين إلى هذا الإدراك ، ونافسوهم في هذا الجهد ، وعلّموهم الصبر على جمع المصادر وتقصّي الأصول ، فما ألفوا كتاباً إلا حين جمعوا له كل شيء وألمّوا بجميع مصادره ، ثم أضافوا إليه مشاهداتهم وما وصل إليهم من رأي جديد ونقل جديد . لذلك كانت أكثر كتبهم جامعة وافية .

وما نعرف تاريخاً للشام أقرب إلى هذه الخطة من «تاريخ ابن العديم» تستطيع أن تقرأه ، وأن تستوعب ما فيه ، فإذا هو يعتمد على مصادر تاريخية جمّة ، جمع منها الحوادث والتراجم ،وضمّ بعضها إلى بعض ،فظهر عليها حيناً أثر الجمع ، واختلف أسلوبها وتكررت حوادثها ، وتباينت آراؤها في حادثة معينة ، وتباعدت فيها الأيام والشهور في واقعة محدودة ، ذلك لأن التاريخ لا يخترع اختراعاً، وانما يجمع المصادر والوثائق والسجلات والمخلفات كما وصلت.

وقد فهم ابن العديم ذلك وأدركه ، فاعتمد على الآثار الباقية ، والسجلات المكتوبة ، واتخذ النقود والعملة والسكة سبيلاً إلى تحديد أسماء الولاة والحكام والقضاة ، واتخذ الأحجار والنقوش والأبنية واسطة إلى معرفة السنين والشهور . وبسط العادات والألبسة والتقاليد ، ونقل الكتب والتوقيعات والرسائل ليصل

إلى الغاية التي رسم ، والهدف الذي أراد .

وهو في هذه الخطّة لا يختلف عن مؤرخي العالم الغربي اليوم. ومن الغريب أن يتفق والخطة الحديثة على ما بينه وبينها من قرون عدة . فقد سجّل تاريخ الشام لعصره ، وعلاقة بلده به ، وسجّل تاريخ مصر وما يتصل منه بتاريخ الشام ، ورسم حوادث العراق وما يتصل بالشام منها .

فهو تاريخ الشام – لا تاريخ حلب فحسب – يبدأ بالعصور الأولى للشام وينتهي عند منتصف القرن السابع للهجرة قبل عشرين سنة من وفاته . هو تاريخ الشام وما يتصل بالشام ، وما ينفع في فهم حوادث الشام في اختصار وإيجاز يجعله التاريخ الحق لسورية الشمالية ، والسجلّ الخاص المفرد لتاريخها . وبغيره لا يستطيع النقاد اليوم فهم الأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرين الذين مرّوا بالشام أو عاشوا على أديمه ، فهماً خالصًا من كل نقص .

وقد أدرك الغربيون خطر الكتاب ، فأخذ منه المستشرقون فصولاً معينة حين أرادوا أن يظهروا تاريخ الشام في عهد الأمويين والعباسيين والحمدانيين ؛ وترجموا منه فصولاً في المرداسيين والصليبيين ، حين رأوا أنه ، على اختصاره وإيجازه ، أوسع مصدر في تاريخ الشام ، وأجمع تاريخ لحوادث الدول التي تعاقبت فيه. فقد ضاعت أكثر الكتب المفصلة التي نقل عنها ؛ وأتت الأحداث التاريخية التي ألمت بالشام على أكثر ما كان من تواريخه ، حين وقعت البلاد بين نارين نار الصليبيين ونار المغول . ولم ينج من الكتب المرسومة المحددة إلا بعضها وعلى رأسها « زبدة الحلب من تاريخ حلب » لابن العديم ، لذلك تنادوا في كل صحيفة ، وكتبوا في كل مجموعة للحث على طبعه واخراجه كاملاً ، فذهب الريح بالنداء .

وقد تنبه له الغربيون قبلنا لأن نسخته الفريدة في حوزتهم . فلمّا سافرتُ إلى باريس سنة ١٩٤٦ صورتُ النسخة ، ورحت منذ ذلك الحين أستقرئ المصادر المطبوعة والمخطوطة التي استقى منها الرجل مادة تاريخه ، وسعيتُ في

جلب المخطوط والمطبوع من التواريخ التي نقلتُ عنه ، لأقابل ما عنده على ما يقع عند غيره ، لعلي أستطيع أن أجلو الغامض من العبارة ، وأكمل الناقص من الجمل ، والمبتور من الورق ، والمبلّل من الصفحات ؛ لأن النسخة مفردة تعاور عليها القدم والنكبات ، ولا سبيل إلى الثقة بمخطوطة واحدة في الطبع العلمي إلاّ إذا أعمل الناشر شكّه في كل جملة ، وارتيابه في كل حادثة ، فعاج إلى النصوص الأخرى يتوثق بها ، ويعتمد عليها حتى تكون عنده بمثابة النسخ المتعددة للكتاب الواحد .

وقد جهدتُ ما استطعت لكي أجعله في متناول القارئ ، فبوبته وعنونتُ لفصوله وأقسامه ، ووضعتُ فهارسه ، لعله يقف لما يطبع الغرب من كتبهم وتراثهم ، حتى لقد أردتُ أن يكون للقرن العشرين كما كان للقرن الثالث عشر ، وأن يجمع إلى إيجازه في الموضوع ودقته في التعبير ، وتحديده للهدف ، جمال الطبع ، وحسن التبويب ، وسهولة الفهارس ، فيقبل عليه القارئ العربيّ في غير ملل ، ويعبّ منه في شوق ، فهو حديث الوطن ، وصورة الأمة وتاريخ الأجداد .

وقبل أن أنتقل إلى الفصول القادمة في حياة ابن العديم ، وأدبه ، ومؤلفاته ؛ أحب أن أرسل التحية عاطرة إلى من عمل له ، وسعى فيه ، وأعان عليه ؛ وأن أبعث بخالص الذكرى إلى روح الأستاذ الجليل «جان سوفاجه» JEAN SAUVAGET الذي أحب ابن العديم ، وعكف على بلد ابن العديم ، وكلف بها حباً ودرساً حتى آخر نفس من أنفاسه .

الفصل الأول

حياة الرجل

٥٨٨ هـ – ٦٦٠ هـ.[١]

مصدر الترجمة

ترجم القدماء والمؤرخون لابن العديم، وأجمعوا على سيرته، ولم يختلفوا فيما بينهم، لأن الرجل قد كتب سيرته ونسب أسرته، فكفى الدارس مؤونة البحث والتدقيق، والحدث والتخمين.

عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري بحلب، وكان ذلك العصر عامراً بالمؤرخين، حافلاً بالعلماء والمدرسين[٢]. وكانت حلب محجة القاصدين والوافدين من كل الأقطار، فيها من مصر والعراق والحجاز، فاجتمع إلى ياقوت الحموي في حلب[٣]، وعرفه ابن خلكان[٤]، وسمع من القفطي وابن شدّاد. وكان ياقوت أشدهم صحبة له ووفاء لأسرته ومحبة لعمله، فقد أعجب به إعجاباً لا يعرف الحدود، وقرّت عيناه بصحبته حتى انتقل ياقوت وهو على

---

(١) وُلد في ٥ كانون الأول ١١٩٢ – وتُوفي في ٢١ نيسان ١٢٦٢

(٢) لن ندرس العصر هنا، وإنما سنفصّل الأمر فيه في صدر الجزء الثاني وهو قريب الصدور.

(٣) عاش ياقوت في حلب أواخر أيامه إلى سنة ٦٢٦ هـ حيث توفي، وأقام في خان بظاهر المدينة.

(٤) عاش ابن خلّكان في حلب من سنة ٦٢٦ هـ – ٦٣٥ هـ، ولكنه لم يخص الكمال بترجمة، وإنما نقل عنه واعتمده مصدرًا ومرجعاً، وتوفي سنة ٦٨١ هـ.

خير ما يكون العالم للعالم والمؤرخ للمؤرخ . وقد سأله أن يكتب له تاريخ أسرته ففعل ، وكتبه في عشر كراريس ، قبيل عام ٦١٦ هـ . وابن العديم في سنّ الشباب .

وكان من حظ التاريخ أن ياقوت نقل أكثر ما في الكتاب إلى معجم الأدباء وحفظه لنا ، ثم أضاف إليه ما عرفه عن ابن العديم ، فأفادنا بذلك ايما فائدة.

ويكاد يكون المصدر الأوحد لرسم هذا النسب وترجمة الرجل في سنّ الشباب .

* * *

النسب والاسرة

أجمع المؤرخون على إيراد نسب ابن العديم ، فجعلوه إلى ابن أبي جرادة صاحب أمير المؤمنين عليّ — عليه السلام — ورَقوا به إلى ربيعة فعقيل ، ثم عامر بن صعصعة ومعاوية بن بكر بن هوازن ، وحفصة بن قيس بن عيلان ، ومضر بن نزار بن معد بن عدنان[1] ، وعدنان جدّ تقف عنده أنساب العرب ، والمؤرخون على أنه من أبناء اسماعيل بن ابراهيم ، وإلى عدنان ينسب معظم أهل الحجاز .

فالرجل عربيّ في نسبه ، عدنانيّ في أرومته ، وهو من قبيلة عُقيل ممن كانت امارتهم بأرض العراق والجزيرة ، إليهم ينتهي وبهم يعتز ، فيدعى العقيلي ؛ وكانت لآل أبي جرادة محلة في البصرة تدعى « محلة بني عقيل » . فالأسرة كبيرة رفيعة ، عظيمة الجانب ، عزيزة المكان ، وهي على جانب من الثروة والغنى بحيث ملك أفرادها في حلب القرية والقرى ، وهي لم تقع في عدم أو فاقة كما يدل الاسم . وإنما كان ذلك لاستعمال أحد أفرادها كلمة العدم في شعره والاكثار منها . قال ياقوت : « سألته أولاً : لِمَ سميتم ببني العديم ؟ فقال : سألتُ جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه . وقال : هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يعرفون بهذا ، ولا أحسب إلاّ أن جدّ جدّي القاضي أبا

(١) رسمنا في آخر المقدمة شجرة لنسب ابن العديم يحسن الرجوع إليها .

الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة — مع ثروة واسعة ونعمة شاملة — كان يكثر في شعره من ذكر العدم وشكوى الزمان فسمّي بذلك . فإن لم يكن هذا سببه فلا أدري ما سببه[1] » . وهذا غموض في سبب التسمية لم يستطع حلّه المؤرخ نفسه على كثرة ما وقع له من كتب ومستندات ، فلا حيلة لنا في ذلك إلاّ إذا كان الرجل يحب أن يتناسى فقراً طرأ على الأسرة ، أو عدماً تعلق بأهدابها .

ولما كان مطلع القرن الثالث للهجرة ، قدم أحد أجداد بني العديم وهو « موسى بن عيسى » من البصرة إلى الشام في تجارة وكان أن حدث طاعون في البصرة ، فلبث الرجل وأهله في الشام ، واستوطن مدينة حلب ، الحاضرة التجارية على ممر الأجيال .

وخلف هذا الرجل أسرة يفيض ابن العديم في الحديث عنها ، فقد ترك ثلاثة أولاد ، أعقب اثنان منهم عقباً لم ينقطع عدة قرون ، وهما « هارون » و « عبدالله » .

٭ ٭ ٭

أما هارون فقد اشترى بحلب ملكاً في قرية ما تزال قائمة إلى اليوم ، وتعرف بأورم الكبرى [2] ، واشترى ابنه زهير قرى كثيرة ، ووقف وقفاً على شراء فرس يجاهد في سبيل الله. ملك الأسرة

وشغل أولاد هارون وأولاد عبدالله مناصب في القضاء والتحديث والخطابة والحسبة والإمامة . وكان منهم الشعراء والكتاب والفقهاء في الدولة المرداسية وما تبعها من دولة عقيلية ، في خدمة العباسيين طوراً ، وخدمة المصريين طوراً آخر ، ثم في خدمة الدولة النورية والصلاحية حتى كان الكمال بن العديم .

---

(١) معجم الأدباء ط. الرفاعي بمصر ١٩٣٦ ، ٦/١٩

(٢) معجم البلدان ٤٠١/١ : « أورم : بالضم ثم السكون وكسر الراء وميم — اسم لأربع قرى من قرى حلب ، وهي أورم الكبرى وأورم الصغرى ، وأورم الجوز ، وأورم البرامكة » . وأورم الكبرى تقع اليوم على طريق المسافر من حلب إلى إدلب والشام.

لهذا قال ياقوت فيهم : « وبيت أبي جرادة بيت مشهور من أهل حلب ، أدباء شعراء ، فقهاء ، عبّاد ، زهاد ، قضاة ، يتوارثون الفضل كابراً عن كابر ، وتالياً عن غابر »[١]

وقد أورد ياقوت نقلاً عن ابن العديم نفسه ، نماذج من شعر أبناء هذه الأسرة ، ولن نثقل في ذكر أسمائهم ، وإنما نحيل القارئ إلى معجم الأدباء ففيه التفصيل ، غير أننا سنختار هنا من هذه النماذج صورة لأدبهم .

قال أحدهم يرثي قريباً له[٢] :

إنّ الردى أقصدتني غير طائشة ... سهامها في فتى كالكوكب الواري
رمته صائبة الأقدار من كثَب ... وما رعت عظم أقدار وأخطار

وقال غيره من شيوخ الأسرة يصف الليل وطوله[٣] :

فؤاد بالأحبـــة مستطار ... وقلب لا يقرّ له قرارُ
وما أنفك من هجر وصدٍ ... وعتب لا يقوم له اعتذارُ
وعين دمعها جمّ غزير ... ولكن نومها نزر غرارُ
كأن جفونها عند التلاقي ... تلاقيهـــا الأسنة والشفارُ

وقال غيره كذلك شعراً كتبه إلى أخيه[٤] :

كنا كغصنين حال الدهر بينهما ... أو لفظتين لمعنى ليس يختلفُ
فأقعدتنا صروف الدهر نابلة ... حتى كأنّ فؤادينا لها هدفُ
فهل تعود ليالي الوصل ثانية ... ويصبح الشملُ منا وهو مؤتلفُ
ونلتقي بعد يأس من أحبتنا ... كمثل ما يتلاقى اللام والألفُ

(١) معجم الأدباء ٥/١٦
(٢) معجم الأدباء ٩/١٦
(٣) انظر بقية الأبيات في معجم الأدباء ١١/١٦ ، وهي لأبي الحسن عليّ بن عبدالله ابن محمد
(٤) انظر معجم الأدباء ١٥/١٦ والشعر لأبي عليّ الحسن بن عليّ بن عبدالله .

وذكر ياقوت شعراً لأخي هذا الشاعر[١] :

ولي في حواشي كل عذل تلفت إلى حبّ من في حبه قبح العذلُ
وإني لأدنى ما أكون من الهوى إذا أرجف الواشون أنني أسلُو

وقال ياقوت في هذا الشعر : « هذا لعمري والله الغاية في الحسن والطلاوة والرونق والحلاوة » ثم نقل شعراً كذلك لأحد أفراد الأسرة[٢] :

ولائم ودموع العين واكفة لا يستبين لها جفنٌ من الغرقِ
يقول أفنيته والشمل مجتمعٌ ولم تصنه لتوديع ومفترقِ

وقائل هذا الشعر قاض كذلك ، في زمن شرف الدولة مسلم بن قريش ، لعله لقي أبا العلاء المعرّي وقرأ عليه ، ومدح سابق بن محمود بن مرداس ، وله فيه شعر غير هذا روى منه ياقوت[٣] :

خلّها إن ظمئت تشكو الأواما لا تقلها الأين إن طال وداما
واجعل السّرج إذا ما سغبت كلأً والموردَ العذب اللجاما
أو تراها كالحنايـا بالسرى وباسراع إلى المرمى سهاما

هذه نماذج من شعر أبناء العديم بسطناها من غير اختيار ، لندلّل على أن كلاً منهم كان شاعراً وكان أديباً وكان قاضياً ، ولنبرهن على مكانة الأسرة في عالم الأدب والشعر . وقد رأينا أن هذا الشعر لا يختلف عما قال الشعراء لذلك العصر ، وإن كان يلوح على محيّاه نور القضاء .

وكانت المعرفة في تلك العصور الاسلامية لا تنحصر في الشعر والأدب فحسب بل تستهدف الفقه وختم القرآن ، وتستلزم الوقوف على الخط والإجادة فيه . وقد ذكر ياقوت كثيراً من أفراد الأسرة ، وذكر وقوفهم على هذا الفرع

(١) معجم الأدباء ١٨/١٦ ؛ والشعر لأبي البركات عبد القاهر بن علي بن عبدالله
(٢) معجم الأدباء ٢٣/١٦ ؛ والشعر لأبي الفضل هبة الله بن أحمد
(٣) معجم الأدباء ٢٦/١٦

من المعرفة فنهم من كتب بخطه ثلاث خزائن من الكتب لنفسه وخزانة لابنه[١]، ومنهم من كان يكتب النسخ على طريقة ابن مقلة ، والرقاع على طريقة ابن هلال[٢] .

وأما ولايتهم القضاء واشتغالهم بالخطابة واشتهارهم بالكتابة، فقد حدّث عنه ياقوت فأطال الحديث.

* * *

الوالد

هذه هي الأسرة التي نبت فيها الكمال بن العديم ، وهي أسرة تولّت القضاء والمناصب العالية ، وأخذت بأسباب الوجاهة في حلب ، وتعلّقت بأهداب الثقافة للعصر ، فنظمت في الشعر ، وشاركت في الفقه ، وأجادت في الخط .

وليس غريباً أن يتحلى أحمد بن هبة الله — والد مؤلفنا — بما تحلّى به آباؤه وأجداده ، فقد تولى الخطبة بحلب على أيام نور الدين محمود بن زنكي[٣] ، (٥٥٣ ﻫ — ٥٦٩ ﻫ) وتولي الخزانة في أيام ولده الملك الصالح اسماعيل (٥٦٥ ﻫ — ٥٧٧ ﻫ) وتولّي القضاء في حلب وأعمالها سنة ٥٧٥ ﻫ مدة غير قصيرة ، تمتد حتى أيام عزالدين ابن الملك الصالح ، وعماد الدين بن قطب الدين بن مودود بن زنكي ، وصدراً من دولة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، سنة ٥٧٨ ﻫ حيثُ عُزل عن القضاء لأن الدولة شافعية ، والرجل من الحنفيّة ، وآباؤه كلهم حنفيّون .

وقد ولد لهذا القاضي عدة بنات وكبرن ، ولم يولد له غير ولد واحد ذكر ، توفي وعمره خمس سنين فحزن عليه ، ويئس ، ولكنه حلم بأن ولداً سيولد له « يعلو قدره ، ويعظم أمره ، ويشيع بين الأنام ذكره » . وكان الوالد

---

(١) معجم الأدباء ١٠/١٦

(٢) معجم الأدباء ١٢/١٦

(٣) هو صاحب حلب توفي سنة ٥٦٩ ﻫ.

قد جاوز الأربعين ، فحملت الأم بكمال الدين عمر ، وكناه أبوه بأبي القاسم على رأي أكثر المؤرخين ، ويكنيه بعضهم « بأبي حفص »[١]

* * *

نشأته

قال ياقوت : « سألتُهُ ــ أدام الله علوّه ــ عن مولده فقال لي : ولدتُ في ذي الحجة[٢] ، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . قال : فلما بلغتُ سبعة أعوام حُملتُ إلى المكتب[٣] » . وفي المكتب ظهر نبوغ الطفل ، وراح يكتب البسملة وهو صغير ويرسم قريباً من خط المعلم فتفرس فيه الناس النجابة والذكاء .

وذكر ياقوت أن كمال الدين « كان نحيفاً جداً فجعل كلما كبر نبل جسماً وقدراً » وقال فيه كذلك : « عُني الله بخلقته فأحسن خَلْقه وخُلُقَه[٤] » وفي التاسعة من عمره ختم القرآن ، وقرأ بالعشر وعمره عشر سنين وجعل يحب الخط ، ويحضّه والده عليه ــ وقد كان والده يجهل أصول الخط « ولم يكن خطّه بالجيد »[٥] ــ ، فأراد أن يتقن ابنه هذا الفرع من العلم حتى غدا الكمال بحيث يصفه ياقوت : « وأما خطّه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقلة لأبي عبدالله بن مقلة وبدر ذو كمال عند علي بن هلال » .

ويبدو أن كمال الدين عمل كأجداده وآبائه فأخذ من كل علم بطرف منذ نعومة أظفاره حتى قال فيه ياقوت : « لم يعتن بشيء إلاّ وكان فيه بارزاً ، ولا تعاطى أمراً إلاّ وجاء فيه مبرزاً » .

وقد عُني الأب بالكمال عناية كبيرة ، فكان يريه خط ابن البواب ، ويطلب

---

(١) في ياقوت وابن خلكان وابن خطيب الناصرية وابن الشحنة : « أبو القاسم » – وفي السخاوي وابن الحنبلي وحاجي خليفة : « أبو حفص » .

(٢) في ابن خطيب الناصرية أنه ولد في العشر الأول من ذي الحجة

(٣) معجم الأدباء ١٦/٣٨

(٤) معجم الأدباء ١٦/٣٧

(٥) معجم الأدباء ١٦/٤٣

إليه تقليده حتى كان له ما أراد ، واصطحبه معه في رحلاته ، فسافر في صحبته إلى البيت المقدس ودمشق مرتين أولاهما في سنة ٦٠٣ هـ وعمره خمس عشرة سنة، وثانيتهما في سنة ٦٠٨ هـ وعمره ثماني عشرة سنة. وجمعه بالمشايخ في القدس ودمشق فأفاد منهم وتعلّم ، ثم رحل به إلى العراق والحجاز .

وكان الأب ميسور الحال ، فقد ذكر ياقوت عن ابن العديم قوله : «وخرجنا إلى ضيعة لنا » . ومن ملك ضيعة كان في مقدوره أن يبذل وأن يسخو في سبيل وليده حتى يبلغ من الثقافة والعلم ما يصبو إليه .

* * *

زواجه وأولاده

قال ابن العديم إن والده خطب له وزوّجه مرتين . خطب له في الأولى وزوّجه بقوم من أعيان حلب ، وساق إليهم من المهر ما طلبوا . ثم جرى خلاف فطلقها ، ووهب لأهلها ما ساق والده مما جرت العادة بتقدمته في ذلك الحين.

وتزوج ثانية بابنة الشيخ الأجل بهاء الدين أبي القاسم عبد المجيد بن الحسن ابن عبدالله المعروف بالعجمي ، وهو شيخ أصحاب الشافعية، وأعظم أهل حلب منزلة وقدراً ، ومالاً وحالاً وجاهاً، وساق إليهم المهر وبالغ في الاحسان[1] . ولم يمت الأب حتى رأى لابنه عمر ولداً اسمه أحمد كان يمشي يوم مات جدّه فوقع على صدره. وقد عاش هذا الولد، وسمع من أبيه شعر البهاء زهير كما ورد ذكره في التذكرة لابن العديم نفسه .

ولكمال الدين ولد آخر وهو مجد الدين أبو محمد عبد الرحمن سمع من أبيه كذلك شعر البهاء — كما في التذكرة وفي ابن خطيب الناصرية [2] — وتوفي سنة ٦٧٧ هـ. وله ولد ثالث ذكره الوافي بالوفيات[3]، ولد سنة ٦٣٥ هـ وعمر والده سبع وأربعون سنة ، وتوفي بعد والده سنة ٦٩٥ هـ .

---

(١) معجم الأدباء ٦٣/١٦

(٢) نسخة الأوقاف في ترجمة كمال الدين. — انظر ص ٣٥ ، في الفصل الثاني .

(٣) إعلام النبلاء للطباخ ط. حلب ١٩٢٣ ، ٥٣٠/٤

ولكمال الدين بنت اسمها « شهدة » ولدت يوم عاشوراء سنة ٦٢١ هـ وعمر أبيها ثلاث وثلاثون سنة ، وقد تعلقت بالعلم ، وأجاز لها ثابت بن شرف [١] .

هؤلاء هم أولاد ابن العديم عرفناهم من خلال المصادر ، ولعل له غيرهم مما لم نقف عليه . ولا شك في أن حياته بينهم كانت حياة أب ومعلم وقاض ، فقد رأينا أنهم تعلّموا وتثقفوا ، وقرءوا وسمعوا منه ، وعرفنا أن ابنته كذلك شاركت إخوتها في العلم فأجيز لها .

ويقول ياقوت عن ابن العديم : « ربُّ ضياع واسعة وأملاك جمّة ، ونعمة كبيرة ، وعبيد كثيرة ، وإماء وخيل ودواب ، وملابس فاخرة وثياب » [٢] وذكر عنه كذلك : « بعد موت أبيه اشترى داراً كانت لأجداده قديماً بثلاثين ألف درهم » . فهو إذاً على غنى كبير وسعة في العيش وبسطة في الرزق ، وأسرة ناعمة رافهة .

مكانته في بلده

قال ابن العديم : « وكان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب — رحمه الله — كثير الإكرام لي . وما حضرتُ مجلسه قط فأقبل على أحد إقباله عليّ مع صغر السنّ » [٣] .

فالرجل كان مقرباً من السلطان لمكان أسرته في البلد جاهاً وعلماً ، ورثهما كابراً عن كابر . ولما توفي والده ، وانتقل مدرس « مدرسة شاذبخت [٤] » — وهي من أجل مدارس حلب وأعيانها — وُلّي التدريس بها في ذي الحجّة سنة ست عشرة وستمائة ، وعمره يومئذ ثمان وعشرون سنة ، « هذا وحلب أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ ، والفضلاء الرواسخ ، إلاّ أنه رئي أهلاً لذلك دون غيره ،

---

(١) المصدر السابق ٤ ٦١ ه

(٢) معجم الأدباء ١٦/٥٣

(٣) معجم الأدباء ١٦/٥٣

(٤) شاذبخت هو جمال الدين الخادم الهندي ، عتيق نور الدين ، ووالي قلعة حلب من قبله — انظر إعلام النبلاء للطباخ ٣/٨٦

وتصدّر وألقى الدرس بجنان قويّ، ولسان لوذعيّ، فأبهر العالم وأعجب الناس[١]».

وقال ابن شدّاد: «تولي التدريس في الحلاوية كمال الدين بن العديم، ولم يزل مدرّساً بها حتى كتب عليه الجلاء مع من كتب من أهل حلب[٢]».

ولا شكّ في أنه كان يتولى التدريس في أعظم مدارس حلب، ويلقي الوعظ في أكثر منابرها، فيفيد الناس من فيض معرفته وغزير علمه. وقد قلّد القضاء فكان فيه كأبيه وجده يفصل بين الناس في أمور دينهم ودنياهم، ويتمتع بإعجابهم وإكبارهم.

رحلاته وأسفاره

وكان القاضي كمال الدين إلى جانب دروسه وحلقاته في الجوامع والمدارس يجتمع إلى الملوك والأمراء والولاة والخلفاء. فقد قرأنا في كتبه ذكراً لرحلاته المتعددة، منها في «بغية الطلب»: «إلى قلعة الراوندان عند الملك الصالح أحمد ابن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب فحكى لي...» «واجتمعت بالوزير الأكرم أبي الحسن عليّ بن يوسف القفطي».

وزار الصاحب مصر وبغداد، واجتمع إليه فيهما العلماء والشعراء والوزراء والملوك. ذكر ابن سعيد المغربي عن الشاعر الجزار: «وأنشدني لنفسه في مطلع قصيدة رفعها إليه – أي إلى ابن العديم – عند قدومه على مصر رسولاً في سنة أربع وأربعين وستمائة. واتفق له من الامتناع للوصول مسلّماً عليه ما جرت به هنالك العادة»[٣].

وذكر ابن سعيد المغربي وهو يتحدث عن الشاعر نفسه: «وقد حضر بين يدي الصاحب الكبير كمال الدين بن أبي جرادة مودّعاً، وقد أزف رحيل الصاحب عن مصر في سنة أربع وأربعين وستمائة، فاتفق أن وجّه سلطان

(١) معجم الأدباء ١٦/٦٦

(٢) إعلام النبلاء للطباخ ٣/٧٣

(٣) المغرب في حل المغرب، طبعة ليدن ١٨٩٩ ص ١٥٩

مصر إلى الصاحب جزءاً من التمر الذي يصل من أعلى الصعيد في المركب المبشر بزيادة النيل على وجه البركة فأمر الصاحب أن يقدّم لمن حضر ، فأكل الجزار في جملتهم وقال في ذلك ارتجالاً »[1] .

وهكذا كانت المراسيم تقام للصاحب ، فلا يدخل عليه إلاّ من يؤذن له ، ويقدم إليه السلطان الهدايا فيوزعها ابن العديم فيمن حضر .

ورحل الصاحب إلى سرّ من رأى ، وذكر هذه الرحلة الحافظ أبو محمد الدمياطي ، وأنشده ابن العديم فيها لنفسه شعراً .

سفارته بين الدول وسفر ابن العديم بين الملوك في أمور خطيرة ومهام سياسية – كما نقول اليوم – وذكر المؤرخون سفارته وهم يعرضون للسياسة في القرن السابع وأحداثه . وأهم ذلك كان في سنة ٦٥٤ هـ ، وفي سنة ٦٥٧ هـ .

أما الأولى فقد فصّل الأمر فيها أبو الفداء فقال : « في هذه السنة توجّه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم ، وصحبته تقدمة جليلة ، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه . ووصل من جهة المعز بن أيبك التركماني صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع – وهو من مماليك المظفر غازي صاحب ميافارقين – إلى بغداد بتقدمة جليلة ، وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق . فبقي الخليفة متحيراً ثم إنه أحضر سكيناً من اليشم كبيرة ، وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في أن له خلعة عندي في وقت آخر . وأما في هذا الوقت فلا يمكنني . فأخذ كمال الدين بن العديم السكين وعاد إلى الناصر » .

وأما الثانية فقد ذكرها ابن كثير وأبو الفداء ، فقال الأول : « في حوادث سنة ٦٥٧ هـ – فيها قدم القاضي الوزير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن

(١) المصدر نفسه ، وفي الصفحة نفسها

العديم إلى الديار المصرية رسولاً من صاحب دمشق الناصر بن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتار بأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام ، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وحرّان وغيرها في هذه السنة، وقد جاز أشموط بن هولاكو الفرات، واقترب من مدينة حلب ».

ولن نطيل في وصف ما حدث للرجل خلال سفارته في مصر أو في بغداد، ففي التواريخ المطبوعة تفصيل يحسن الرجوع إليه ، لكننا ذكرنا السفارتين لنضرب مثلاً من أعماله السياسية ، ومشاغله الدولية – كما نقول اليوم – ، فقد زاد على علوّه في الأدب والشعر، والقضاء والفقه ، والثروة والغنى مكانة عند الملوك وخطراً بين الدول في الساعات الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية . وقد كان التتار البرابرة على أبواب الشام، يهددون حاضرة الشمال ، وينذرونها بمصير كمصير بغداد ، وقد كان لهم ما أرادوا .

* * *

رأي الشعراء والمؤرخين فيه

بلغ ابن العديم بعلمه وذكائه وجده منزلة فريدة ، ومكانة محسودة ، وقد أصبح من الوجاهة بحيث كان محط الأنظار يقصد إلى داره العظماء ويحج إليه الكبراء ويفد إليه الشعراء . وقد أخبرنا سبط ابن العجمي في كتابه كنوز الذهب[1] عن المدرسة التي أنشأها ابن العديم ، والدار التي بناها، وسماها جوسقاً (قصراً) والبستان الذي جعله حوله، في خارج حيّ باب النيرب، حوالي سنة ٦٣٩ هـ، وآثار هذه الدار والبستان ما تزال قائمة في حلب إلى اليوم.

في هذه الدار أنشده الشعراء مدائحهم ، وأرسل إليه الكتاب رسائلهم ، وأهدى إليه المؤرخون كتبهم ، وكانت خزانته عامرة بكل ذلك . وقد حفظ لنا التاريخ بعض المدح في ابن العديم شعراً ونثراً ، ولعلنا حين نبسط بعض هذا الشعر نعرض صورة خاطفة عن رأي الشعراء فيه ، ونظرهم إليه .

(١) كنوز الذهب ، تحت عنوان المدرسة العديمية ، انظر إعلام النبلاء ٦٩٩/٤

قال علم الدين بن المرصّص، وهو من فضلاء الفسطاط وجلة الشعراء فيه، وقد توفي سنة ٦٣٨ هـ :

قد طاب فرعاً حين طا ... بت في منابته الأصولُ
لو كان في زمن الرسو ... ل رأى تقدّمه الرسولُ
وأتى بما نتلو عليـ ... ـه من المحامد جبرئيلُ
فقضت بسؤدده الشريعـ ... ـة مثل ما قضت العقولُ
خلقٌ أرق من النسيـ ... ـم كأنه مــاء يسيلُ
وجلالة عظمت مهـا ... بتها فمنظرها يهولُ
أسد بمعركة الجـدا ... ل وحلقة التدريس غيلُ(١)

وقال فيه كذلك :

فتراه يوم تراه بين وفوده ... يعطي الألوف ووجهه يتهلّلُ
فاذا حبانا فاض بحر نواله ... وإذا فضضنا المدح فاح المندلُ
إن تذكر الرؤساء كان رئيسهم ... أو عدّت الفضلاء فهو الأوّلُ
وجياده لو أنصفت وطئت على ... خدّ السماء وبالأهلة تنعلُ
كلٌّ دعيٌّ في الرياسة والعلى ... وابن العديم هو المعمّ المخولُ
ولقد بخلتُ على الملوك بمدحتي ... وبها على عليائه أتطفلُ(٢)

وقال فيه الجمال أبو الحسين الجزار من شعراء الفسطاط :

يا من أرجّي ماله وجاهه ... هذا أوان النفع فافعل ما ترى
فخاطبِ السلطان فيّ مرة ... واحدة من قبل تنوي السفرا
فهو أبو بكر وأرجو أنه ... في كل أمر لم يخالف عمرا(٣)

---

(١) المغرب ، طبعة ليدن ص ١١١
(٢) المصدر السابق ص ١١٧
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٨

وقال فيه البهاء زهير يمدحه ويقصده :

دعوتُكَ لما أن بدت لي حاجة   وقلت: رئيس مثله من تفضّلا
لعلك للفضل الذي أنت ربُّه   تغار فلا ترضى بأن تتبدلا(١)

وهؤلاء الشعراء يستجدونه المال والرفد، ويستقضونه حوائجهم ومصالحهم، فقد كان غنياً جواداً ، وكان ذا بسطة في الجاه والمكانة في الشام ومصر . فابن المرصّص يمتدح أصله ومنبته ، ويرى له من المنزلة العالية ما لا يرى لغيره ، ويجد عنده الخلق الطيب والجلالة العظيمة ، والمهابة السامية ، ويراه في وفوده يعطي الألوف وهو ضاحك ، فهو رئيس الرؤساء وأول الفضلاء ، وهو المعم المخول في الرئاسة . وقد بخل الشاعر على الملوك بمديحه وخصّ ابن العديم بجيد خرائده .

وابن الجزار يرجوه المال والجاه كذلك ، ويلتمس إليه أن يخاطب فيه السلطان قبل سفره، فالسلطان لا يخالف له أمراً . والبهاء زهير يطلب إليه حاجة يتفضل بها عليه ، فهو رب الفضل كما يقول .

وللقارئ أن يرمي الشعراء بحب المبالغة، فاذا قرأ للمؤرخين أو للكتاب عجب من رأي الناس فيه وأدهشته مكانته عندهم . فالدمياطي يقول فيه : « أحد الرؤساء المشهورين ، والعلماء المذكورين ، ويرسل إلى الخليفة والملوك مراراً كثيرة ، وكانت له الوجاهة العظيمة عند الخلفاء والملوك . وهو مع ذلك كثير التواضع ، ليّن الجانب ، حسن الملتقى والبشر للناس ».

ويقول فيه العيني : « كمال الدين أبو القاسم الأمير الوزير ، الرئيس الكبير(٢) » . ويقول الغزي الحنفي فيه : « أرسله الملك الناصر يوسف صاحب حلب إلى الخليفة ببغداد مراراً وكان معظماً عنده »(٣) . وقال فيه ابن حبيب :

(١) ديوان البهاء زهير ، طبعة المنيرية ص ١٧٤

(٢) عقد الجمان ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بالصفحة ٤٨٥

(٣) الطبقات السنية في تراجم الحنفية للغزي ، مخطوطة بمصر ، بالصفحة ٣٥٦ ظ

« رئيس رفعت راية مجده ، وتحلّت مجالس الملوك بجواهر عقده ؛ كان ذا وجاهة زائدة ، وصلابة منافعها عائدة ، وحرمة في الدولة وافرة ، وأخلاق عن التواضع والتلطف سافرة ، وضبط وتحرير ، وسياسة وتدبير »[1].

ولم تقصر أسرته بعده عن غايته ، ولم تنحط عن منزلته ، فقد كان منهم القضاة في مصر ، والكتاب والفقهاء ، والتاريخ حافل بذكرهم ، وطبقات الحنفية للقرشي تذكر منهم الكثير ، وابن حبيب يعدّد منهم حتى قرون متأخرة. ولكننا لن نستطيع الإفاضة في تراجمهم وذكرهم ، لأن ذلك يخرجنا عن هدف الترجمة ويعدو بنا حدود الإيجاز في الكتابة ، فالأسرة كلّها في الأعلام سواء فيها السلف أو الخلف ، وما تكفي الصفحات لإيراد فضلهم جميعاً وبيان مكانتهم جميعاً .

* * *

وفاته

قصد التتار أبواب الشام سنة ٦٥٧ هـ ، فهرب الملك الناصر صاحب حلب إلى « برزة » وهي في أطراف دمشق ، وجفل معه كثير من الناس ، ولا شك في أن ابن العديم تحمّل إلى « برزة » مع سيده ، ثم سافر إلى غزة ومنها إلى مصر . وقد ذكر المؤرخون أن هولاكو عرض على ابن العديم منصب القاضي في حلب ، ولكن الصاحب أبى أن يجعل نفسه في خدمة الأعداء .

ولقي ابن العديم في مصر من الحفاوة ما كان يلقى في الشام وغيرها ، وعاش فيها خلال الفترة المظلمة التي مرت بها حلب ، فلما انقشعت عنها الغمامة السوداء وجاءت الأخبار بأن عسكر قطز صاحب مصر شتت عسكر هولاكو في « عين جالوت » سنة ٦٥٨هـ. وأن التتار انهزموا هزيمة قبيحة ، وأن المسلمين أفنوهم ، وأنهم كسروا على حمص وجلوا عن حلب سنة ٦٥٩ هـ عاد ابن العديم إلى بلده وأهله .

---

(١) درة الأسلاك في دولة الأتراك لابن حبيب ، مخطوطة بمصر ، بالصفحة ١٥

ولكنه شهد فيها الخراب والدمار ، ورأى أن الوحشية لم تبق فيها ولم تذر فتألم لخرابها بعد العمارة ، وكآبتها بعد السرور ، فبكاها بقصيدة ميمية طويلة مطلعها :

هو الدهر ما تبنيه كفاك يهدمُ وإن رمت إنصافاً لديه فتظلمُ

وذكر فيها الديار والأهل والمساجد والمدارس ، والنساء والعذارى ، وتألم لإقفار الربوع ، وموت الأحباب والأصحاب ، وناح على كل منزل وبيت.

ولم يرق له المقام ، ولم يطب له العيش فيها ، فلم يطق أن يرى بلده الحبيب في ذل بعد العز وفقر بعد الغنى ، وهو الذي أحبّه وكلف به ، وسطر تاريخه وعاش موسّعاً عليه في أكنافه . لذلك انطلق إلى مصر ، وعاد إلى القاهرة . ولكن المنية لم تمهله طويلاً ، فلم يمضِ عام على عودته حتى قضى بظاهرها في العشرين من جمُادى الأولى سنة ٦٦٠ هـ ؛ ودُفن من يومه بسفح المقطم رحمه الله ، وكتب له العفو والمغفرة .

وهكذا ختمت حياة عاطرة ، عامرة بالمجد ، مترعة بالجد ، خلفت لحلب ذكراً لا يبلى وفخراً لا ينقطع ، وكان للشام بموته حزن عميق وفراغ واسع[١].

(١) في ذيل الروضتين ، طبعة مصر ١٩٤٧ ص ٢١٧ : «وصُلّي عليه بدمشق صلاة الغائب رحمه الله »

الفصل الثاني

علمه وادبه

رأينا عناية الأب بابنه ، وعرفنا عن ياقوت أن ابن العديم

سماعه وتدريسه حفظ اللمع وقرأه على شيخ حلب الضياء بن دهن الحصا ، وعرفنا كذلك أنه حفظ «القدوري» في فقه الحنفية[1] .

وقد ذكر المؤرخون[2] أنه سمع بحلب من عمر بن طبرزد[3] ، وافتخار الدين عبد المطلب الهاشمي[4] ، وبهاء الدين يوسف بن رافع بن شدّاد قاضي حلب[5] ، وعبد الرحمن بن علوان ، وثابت بن شرف[6] وابن روزبه ، وجماعة كثيرة غيرهم .

وذكروا كذلك أنه سمع بدمشق من أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي[7] ،

(1) القدوري من أعيان عصره توفي سنة ٤٢٨ﻫ ، ولد ومات في بغداد ، وانتهت إليه رئاسة الحنفية في العراق ، وصنّف المختصر المعروف «بالقدوري» في الفقه

(2) نذكر منهم ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وابن خطيب الناصرية في الدر المنتخب

(3) هو أبو حفص عمر بن محمد بن معمر بن يحيى البغدادي ولد سنة ٥١٥ وتوفي سنة ٦٠٧ ﻫ – انظر البداية والنهاية لابن كثير في حوادث سنة ٦٠٧ ﻫ .

(4) توفي سنة ٦١٦ ﻫ – انظر الطباخ ٣٦١/٤

(5) خلف الرجل كتاباً في سيرة صلاح الدين – انظر في ترجمته الطباخ ٣٨٣/٤

(6) انظر ترجمته في إعلام النبلاء للطباخ ٥٦١/٤

(7) انظر ترجمته في ذيل الروضتين ، ط . مصر ، ص ٩٥ ، ولقبه تاج الدين توفي سنة ٦١٣

وأبي القاسم عبد الصمد بن القاضي بن الحرستاني[١] ، وابن طاووس[٢] ، والحسن بن صصري[٣] ، وابن البناء ، والبهاء عبد الرحمن ، وابن المنى ، وأحمد بن عبدالله العطّار ، والعماد ابراهيم بن عبد الواحد . وسمع ببغداد من عبد العزيز بن محمود بن الأخضر .

وسمع من ابن العديم ولدُه مجد الدين أبو محمد عبدالرحمن ، وابن مسدي[٤] ، وابن الحاجب[٥] ، وذكراه في معجميهما ، وسمع منه الدمياطي[٦] وذكره في معجمه وأنشد من شعره ، وكذلك أبو القاسم أحمد بن محمد بن الحسين .

وهؤلاء هم سادة العلم لعصره وشيوخ الثقافة لعهده وكلهم ألف واشتهر وكان حجة في علمه ، وأكثر كتبهم ورواياتهم متداولة معروفة . ولا شك في أن ابن العديم أفاد منهم علماً غزيراً ورواية كثيرة ، ونقل منهم وأخذ عنهم ، فكان هذا الفيض من المعرفة التي نراها في كتب ابن العديم وما ترك لنا .

وقد درّس ابن العديم وأفتى ، وقضى بين الناس ، وكتب وخطّ ، وروى عنه كثير من العلماء والأدباء فاعتبروه ثقة ومرجعاً . وقد قال فيه ابن شاكر الكتبي : «كان محدّثاً فاضلاً ، ومؤرخاً صادقاً ، وفقيهاً مفتياً ، ومنشئاً بليغاً ،

---

(١) في أكثر النسخ « ابن الحرساني » وهو تصحيف ، توفي سنة ٦١٤هـ ورحل إلى حلب – ترجمته في ذيل الروضتين ١٠٦

(٢) هو جمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس العلوي الحسني توفي سنة ٦٧٣ هـ ، وهو من فقهاء الامامية العاملية ومحدثيهم – انظر الأعلام للزركلي ٨٢/١

(٣) في أكثر النسخ أنه « الحسين بن صصري » وهو تصحيف – واسمه أبو المواهب الحسن بن أبي الغنائم هبة الله بن محفوظ بن صصري الربعي الدمشقي ، من حفاظ الحديث . كان محدّث دمشق ومفيدها – انظر الأعلام للزركلي ٢٦٣/١

(٤) هو محمد بن يوسف بن موسى الأزدي المهلبي ، أبو بكر جمال الدين الاندلسي المعروف بابن مسدي ، أصله من غرناطة ، وسكن مكة إلى أن توفي فيها ، فلما رحل ابن العديم إلى الحجاز لقيه الرجل وأخذ عنه وسمع منه – توفي ابن مسدي سنة ٦٦٣ هـ – انظر الأعلام للزركلي ١٠٠٥/٣ .

(٥) هو جمال الدين عثمان بن أبي بكر بن يونس من كبار علماء العربية . ولد في اسنا من صعيد مصر ، ونشأ في القاهرة ، وسكن دمشق ، ومات في الاسكندرية ، وعاش من سنة ٥٧٠ – ٦٤٦ هـ . – انظر الأعلام للزركلي ٦٣٩/٢ .

(٦) هو الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي ، توفي سنة ٧٠٥ .

وكاتباً محموداً . ودرس وأفتى وصنف ، وترسّل عن الملوك ، وكان رأساً في الخط لا سيما النسخ والحواشي » . ومن يطالع «بغية الطلب» يجد لـه الحديث المروي والأسناد الطويلة . ومن يقرأ له «التذكرة» ير أنه منشئ بليغ وكاتب محمود ومترسل فصيح . ومن ينظر في المخطوطات التي وصلت إلينا والمحاريب التي بقيت لعهدنا وعليها خطه يجد أنه كان رأساً في الخط . وقال فيه ياقوت : «قرأ الأدب وأتقنه ، ودرس الفقه فأحسنه ، ونظم القريض فجوّده ، وأنشأ النثر فزينّه ، وقرأ حديث الرسول وعرف علله ورجـاله وتأويله وفروعه وأصوله » .

ولم يبالغ الرجلان فيما قالا ، ولم يتعديا حدود الصدق في حكمهما ، فبين أيدينا آثار الرجل ومؤلفاته ناطقة بذلك شاهدة على ما يقولان في ابن العديم ، وسنتناولها بالتحليل والنقد في الفصل الثالث لندلّل على ما كان للرجل من باع في النثر والفقه والحديث ؛ وانما نخصّ هذا الفصل بشعره وقريضه .

شعر ابن العديم

نقل ياقوت نتفاً من شعر الصاحب ليدلّل على تفوقه في صنـاعة النظم والقريض . ولكن الشعر الذي رواه لا يمثل شعر الرجل إلاّ في سنّ معيّنة ؛ فقد ذكر له بعض شعر الشباب قبل أن يتجاوز الكمال الثلاثين من عمره . ومات ياقوت فلم يحفظ لنا التاريخ بعده شعراً غزيراً نستدل به على طريقته بعد الثلاثين . ولم ينقل إلينا عن ديوانه المجموع خبر متصل أو مخطوطة محفوظة[1] ، ولو وقع إلينا هذا الديوان لخلصنا به إلى تحليل وثيق ونقد علميّ .

ولا شك في أن الرجل طرق أبواب الشعر جميعاً ، ونظم فيها جميعاً ، فحلّق إلى حيث أقرانه من شعراء العصر . فالبقية المحفوظة في ثنايا المخطوطـات والمطبوعات تدل على شاعريته وقوته ، وما دمنا لا نحلم بالعثور على ديوانه

(١) ذكر الطباخ في إعلام النبلاء أن مخطوطة ديوانه في الاسكندرية ، ولكننا بحثنا عنها فلم نقف لها على أثر .

فسنعمد إلى هذا الغيض من فيضه نتذوق به شرابه ، وإلى هذا الزهر من روضه نشم أريجه ، لنحكم على الرجل بما له وما عليه .

* * *

الغزل

قال ياقوت : « وأنشدني كمال الدين — أدام الله علاءه — لنفسه في الغزل ، فاعتمد فيه معنى غريباً :

وأهيف معسول المراشف خلته ... وفي وجنتيه للمدامة عاصرُ
يسيل إلى فيه اللذيذ مدامة ... رحيقاً وقد مرّت عليه الأعاصرُ
فيسكر منه عند ذاك قوامه ... فيهتز تيهاً والعيون فواترُ
كأنّ أمير النوم يهوى جفونه ... إذا همّ رفعاً خالفته المحاجرُ
خلوتُ به من بعد ما نام أهله ... وقد غارت الجوزاء والليل ساترُ
فوسّدته كفي وبات معانقي ... إلى أن بدا ضوء من الصبح سافرُ
فقام يجرّ البرد منه على تقى ... وقتُ ولم تحلل لإثم مآزرُ »

فهو يصف المراشف المعسولة والخمرة المعتقة ، ويرى أنها مبعث تيه إذا خطر المحبوب في عيون نواعس . وكلها معان طرقها الفحول من الشعراء ، لكنه ربط بينها ووصل بين معانيها وأغراضها ، فجاءت محبوكة متماسكة . وهو يصف الليل مع محبوبه ، فيوسده الكف معانقاً حتى الصباح ، ولكنه ينبئنا أن ثوبه طاهر وأن برده تقي ، وأنه لم تحلل مآزره لإثم . وهو يذكرنا في بعض أبياته برقة أبي فراس الحمداني وعفته ولياليه حين يقول في رائيته المشهورة .

فلما خلونا يعلم الله وحده ... لقد كرمت نجوى وعفت سرائرُ
وبتّ يظن الناس فيّ ظنونهم ... وثوبي مما يرجم الناس طاهرُ
وكم ليلة ماشيت بدر تمامها ... إلى الصبح لم يشعر بأمري شاعرُ
ولا ريبة إلا الحديث كأنّه ... جمان وهى أو لؤلؤ متناثرُ[1]

والقصيدتان من بحر واحد وقافية واحدة ، ونفس كريم متشابه ؛ وكلمات

---

(١) انظر بقية القصيدة في ديوان أبي فراس الحمداني ، طبعة سامي الدهان ٢/١٠٥ .

ابن العديم رقيقة كذلك وألفاظه منتقاة عذبة ، وتصويره رائق مستحسن ، وفيه صنعة مقبولة غير نابية ، وفيه شاعرية خصبة .

ويقول ياقوت كذلك : « وأنشدني لنفسه بمنزله بحلب في ذي الحجة سنة ٦١٩ وإملائه :

وساحرة الأجفان معسولة اللّمى ... مراشفها تهدي الشفاء من الظما
حنت لي قوسي حاجبيها وفوّقت ... إلى كبدي من مقلة العين أسهما
فواعجباً من ريقها(١) وهو طاهر ... حلالٌ وقد أضحى عليّ محرّما
فإن كان خمراً أين للخمر لونه(٢) ... ولذته مع أنني لم أذقهما
لها منزل في ربع قلبي محلّه ... مصون به منذ أوطنته لها حمى
جرى حبها مجرى حياتي فخالطت ... محبتها روحي ولحميَ والدّما »

وهذه القصيدة كذلك في الغزل العفيف الشريف تصف أثر الحسناء ساحرة الأجفان معسولة اللّمى تصيد بقوس الحاجبين فتدمي الكبد ، وريقها على ذلك كالخمر محرّم عليه ، له لون وله لذة أين منها الخمر ! لقد أحبها حتى خالطت محبتها روحه ولحمه ودمه .

هذه هي أغراضه في الغزل كأغراض الشعراء الذين عاصروه سواء بسواء لا يختلف عنهم ولا يختلفون عنه ، رقة ديباجة ومتانة سبك ، وجمال استعارة وتشبيه .

* * *

الفخر

افتخر كمال الدين وحقّ له ، فهو من أسرة رفيعة غنية ملكت المال والرفعة ، وحصلت في البلاد على الوجاهة والرئاسة . يقول ياقوت :

« وأنشدني أيضاً لنفسه بمنزله سالكاً طريق أهله في الافتخار :

سأُلزم نفسي الصفح عن كل من جنى ... عليّ وأعفو حسبة وتكرّما(٣)
وأجعل مالي دون عرضي وقاية ... ولو لم يغادر ذلك عندي درهما

(١) فوات الوفيات ١٠٣/٢ : « من ريقه » .
(٢) فوات الوفيات : « هو الخمر لكن أين للخمر لونه » — شذرات الذهب ٣٠٣/٥ ، والنجوم الزاهرة ٣١٠/٧ : « هو الخمر لكن أين للخمر طعمه » .
(٣) في شذرات الذهب ٣٠٣/٥ : « عفة وتكرما » .

وأسلك آثار الأُلى اكتسبوا العلى | وحازوا خلال الخير ممن تقدما
أولئك قومي المنعمون ذوو النهى | « بنو عامر » فاسأل بهم كي تعلما
إذا ما دعوا عند النوائب إن دجت | أناروا بكشف الخطب ما كان أظلما
وإن جلسوا في مجلس الحكم خلتهم | بدور ظـلام والخلائق أنجما
وإن هم ترقّوا منبراً لخطـابة | فأفصح من يوماً بوعظ تكلما
وإن أخذوا أقلامهم لكتـابة | فأحسن من وشْي الطروس ونمنما
بأقوالهم قد أوضح الدر واغتدى | بأحكامهم علم الشريعة محكما
دعاؤهم يجلو الشدائد إن عرتْ | وينزل قطر الماء من أفق السّما
وقائلـة : يا ابن العديم إلى متى | تجود بما تحوي ستصبح معدمـا
فقلت لهـا : عنّي إليك فانني | رأيتُ خيار الناس من كان مُنعما
أبى اللؤمَ لي أصلٌ كريم وأسرة | عقيليـة سنّوا النّدى والتكرّما

هذا هو الفخر الصادق الذي لا تلتمع فيه سيوف ولا تقطر منه دماء ولا تبدو فيه حمر النعم ، فلم يكن أجداده ممن دخلوا الحروب وخاضوا الغمرات بأطراف القنا وحدّ الرماح ، وإنما هم قضاة تولّوا الحكم بين الناس فأناروا سبل الحق ، وكانوا نجوماً إذا ادلهمّت الدنيا ؛ وهم خطباء فصحاء وكتاب بلغاء ، أحسن من وشْي الطروس ، وهم يستنون سنة الشريعة السمحاء ؛ فهم صالحون مخلصون ، يستجيب الله لهم الدعاء ، ويجلو بهم ظلمة الشدائد ، وينزل الرحمة على الناس بجميل ندائهم . وهم إلى جانب ذلك كرماء من أسرة شامخة الذرى في العلم والدين والتقوى والندى من بني عُقيل . وخير الفخر ما كان حقاً وصدقاً ؛ وخير المال ما وفّر العرض وحمى الذمار .

ونستطيع أن نجد في بعض هذا الفخر شبهاً بفخر أبي فراس الحمداني حين يقول :

ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى | ولا بات يثنيني عن الكرم الفقرُ
وما حاجتي بالمال أبغي وفوره | إذا لم أفر عرضي فلا وفر الوفرُ(١)

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ، طبعة سامي الدهان ٢/٢١٢

وما نرى في أسلوب الفخر عند ابن العديم معاظلة في اللفظ ، فهو ينظم في الفخر كما ينظم في الغزل في عبارات سلسة هيّنة تجري مجرى الشعر الفصيح الرقيق ، ولا تختلف عن أسلوب النثر الرفيع إلاّ في تحليق الخيال وسموّ الموسيقا وجلال القافية في ترتيب وتدرّج وتماسك وارتباط مع أن عصره زخر بالنظامين المتحذلقين .

* * *

الاخوانيات

طرق الشاعر ابن العديم باب الإخوانيات ونظم فيه ، وكتب به إلى أهله وأصدقائه الذين كانوا يرسلون إليه رسائلهم في شعر . ذكر له ابن شاكر الكتبي من شعره قال : « وكتب بها الى نور الدين بن سعيد :

يا أحسن الناس نظماً غير مفتقر ... إلى شهادة مثلي مع توحّدهِ
إن كان حظي كسا خطاً كتبت به ... إليّ حسناً بدا في لون أسودهِ
فقد أتت منك أبيات تعلمني ... نظم القريض الذي يحلو لمنشدهِ
أرسلتها تقتضيني ما وعدتّ به ... والحرّ حاشاه من إخلاف موعدهِ[1]

وفي القصيدة من التواضع والأناة والرقة والبساطة ما يجعل صاحبها في عداد الذين يجيدون في الاخوانيات، ويحسنون في الرسائل الشعرية — إن صح التعبير —

وذكر له ابن شاكر الكتبي كذلك قصيدة أخرى قال فيها : « وكتب إلى ولده[2] قاضي القضاة مجد الدين :

هذا كتابي إلى من غاب عن نظري ... وشخصه في سويدا القلب والبصرِ

(١) فوات الوفيات ١٠٣/٢

(٢) فوات الوفيات ١٠٣/٢ : « إلى والده » وهو لا شك تصحيف في الطبعة وصحيحها كما أثبتنا ، فليس اسم أبيه مجد الدين ، وإنما هو اسم ابنه مجد الدين عبد الرحمن . ولد سنة ٦١٤ ﻫ وتوفي سنة ٦٩٩ ﻫ كما في الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية للقرشي ص ٣٠٢ ، وكما نقل الطباخ في إعلام النبلاء ١٨/٤ه عن الشيخ محمد المرضي في مجموعته ، إذ أخذ عن المنهل الصافي فذكر وفاته سنة ٦٧٧ ﻫ ولعلها أقرب إلى الصواب

ولا يمنّ بطيف منه يطرقني عند المنام ويأتيني على قدرِ
ولا كتابٌ له يأتي فأسمع من أنبائه عنه فيــه أطيب الخبرِ
حتى الشمال التي تسري على حلبٍ ضنّت عليّ فلم تخطر ولم تسرِ
أخصّه بتحياتي وأخــبره أني سئمتُ من الترحال والسفرِ
أبيت أرعى نجوم الليل مكتئباً مفكراً في الذي ألقى إلى السحرِ
وليس لي أرب في غير رؤيته وذاك عندي أقصى السؤل والوطرِ

وهي رسالة رشيقة لطيفة فيها حنان الأب وعطفه، وفيها شوقه وحنينه إليه، يخطر في نومه فيقضي الليل أرقاً، وما له حيلة في الوصول إليه، فهو في سفر وترحال، يشتاق نسيم حلب يهبّ عليه لعله يستطيع أن يحمله التحية والسلام، ولكن النسيم بعيدٌ ضنين. وهذه الرسالة كغيرها مما نظم ابن العديم رقيقة بسيطة لا تكلف فيها ولا تعمّل، وإنما هي من القلب إلى القلب ومن الشعور إلى الشعور، كأجمل ما خط الشعراء في إخوانياتهم ورسائلهم إلى أبنائهم.

وأورد له ياقوت قصيدة من الشعر كتب بها إلى أحد إخوانه جواباً على رسالة فيها نثر وشعر خطّها أمين الدين ياقوت المعروف بالعالم، وهو صهر أمين الدين ياقوت الكاتب الذي يضرب به المثل في جودة الخط، يسترفده خطه فأجابه ابن العديم شعراً على الوزن والقافية قال:

يا من أبثُّ حمى قلبي مودته ومن جعلت له أحشاي أوطانا
أرسلتَ نحويَ أبياتاً طربتُ بها والفضل للمبتدي بالفضل إحسانا
فرحتُ أختالُ عجباً من محاسنها كشارب ظلّ بالصهباء نشوانا
رقّتْ وراقتْ فجاءتْ وهي لابسةٌ من البلاغة والترصيع ألوانا
حكت بمنثورها والنظم إذْ جمعا بأحرف حسنتْ روضاً وبستانا

والقصيدة تبلغ أربعة عشر بيتاً أنشدها ابن العديم صديقه ياقوت وكلها على سلاسة وبساطة وفصاحة ورقة لا تعدو المعاني المطلوبة في مثل هذا الموقف، ولا تخرج عما عرف الشعراء الفحول في إخوانياتهم. فهي من صميم العاطفة والشعور

تبين عن تأثر ابن العديم بما قرأ ولطف تعبيره عما أحس وجمال أسلوبه في الجواب ، وهي تسير وفق القافية والوزن فهي مقيّدة . ومع ذلك نرى فيها شاعرية غير متكلفة ولا متصنعة . وخير الشعر ما صدر عن القلب وأفصح عن اللب بغير عسر ولا عناء .

* * *

الرثاء

لو وقع إلينا الديوان لخلصنا منه إلى تحليل الرثاء عند الرجل ، فقد بكى أباه من غير شك ، وبكى أصدقاءه من غير ريب . وما نشك في أن الرجل ضرب فيه بسهم وافر كما فعل في الأبواب الشعرية الأخرى. وما نشك في أنه بلغ فيه مرتبة الشعراء ؛ لكنه لم يصل إلينا ولو وصل لكان ممتعاً حقاً . غير أننا لن نعدم من تحليل قطعة نجعلها في الرثاء هي قصيدته التي بكى فيها حلب بعد سنة ٦٥٨ هـ ، حين عاد إليها بعد غزو هولاكو وقومه ، ورآها بعد انصرافهم عنها ، وأيديهم تصرخ بالدم ، وعيونهم قد امتلأت برؤية الضحايا ، ونفوسهم قرت بالقتل والفتك ، وغبار الأبنية يتصاعد ، وحرائق البيوت ما زال لطخة سوداء في كل مكان ، وصفحة عار في كتاب الانسانية تشهد بأن الهمجية قامت بأبشع أدوارها في هذا البلد الذي تعاقبت عليه السنين وتعاورت عليه الدول فما هدمت أسواره كلها ، ولا حطمت مناعته جميعها ، ولكنهم التتار مرّوا بالبلد فتركوا على كل بقعة فيه بصمات أصابعهم المجرمة شاهدة على مرّ العصور وكرّ الدهور .

في هذا الحين العصيب زار ابن العديم بلده الذي أحب ووطنه الذي عشق ، وهو يعرف كل حجر من أحجاره ، وكل بناء من أبنيته وكل أرض من بقاعه ويعرف تاريخها وما جرى لها على اختلاف السنين ، فرآها وقد أقوت وتهدمت ، وأصبحت الرياح تعبث بها ساخرة ، وتمر بها هازئة .

زار كمال الدين مؤرخ حلب مدينته ، فلما رآها على هذه الحال نظم قصيدة ميمية ، ذكر المؤرخون بعض أبياتها ، ووقعنا عليها في عقد الجمان للعيني مخطوطة(١) :

(١) نسخة القاهرة ، بالصفحة ٥٨٦

فاقتبسنا بعض أبياتها لنصور شعر الرجل في شيخوخته وقد جاوز السبعين من عمره ، وبلغ مرحلة من اليأس والعجز ، ما زعزع قيثارته وحطّم بعض أوتارها ولكنه على كل حال يمثل شعر الرثاء عند الرجل ، قال فيها :

وعن حلبٍ ما شئتَ قل من عجائب أحلّ بها يا صاح إن كنت تعلمُ
غـداة أتاها للمنية بغتـة من المغل جيش كالسحاب عرمرمُ
أحاطوا كأسراب القطا بربوعها على سبّق جرد من الخيل طهّمُ
أتوهـا كأمواج البحار زواخراً ببيض وسمر والقتـام مخيّمُ
وقد عطلت تلك العشار وأذهلتْ مراضع عما أرضعت وهي هيّمُ
فيا لك من يوم شديد لغامه وقد أصبحت فيه المساجد تهدمُ
وقد درستْ تلك المدارس وارتمت مصاحفها فوق الثرى وهي تختمُ
وقد جزرتْ تلك الشعور وضمخت وجُبِنّ بأمواه الدما وهي تلطمُ
وكل مهاة قد أهينتْ سبيـة وقد طالما كانت تعزّ وتكرمُ
تنادي إلى من لا يجيبُ نداءها وتشكو إلى من لا يرقّ ويرحمُ
فيـا حلباً أنى ربوعك أقفرتْ وأعيتْ جواباً فهي لا تتكلمُ
وأين شموس" كنّ بالأمس طلقاً فأين استقلوا بالركاب ويمّموا
فهأنا ذو وجد يجنّ بأضلعي عليك وعيشي في البلاد يذمّمُ
أنوحُ على أهليك في كل منزل وأبكي الدجى شوقاً وأسأل عنهمُ
ولكنّما لله في ذا مشيئة فيفعل فينا مـا يشاء ويحكمُ

وفي هذه القصيدة نحسّ ألم الرجل لفراق الأحباب وموت الأصحاب وزوال الثروة ، في سنّ لا تتحمل الصدمات والنكبات ، فهي زفرة أرسلتها ضلوعه ، ولعلها آخر زفرة في شعره ، بل لعلها آخر قصيدة في نظيمه توّلى إثرها عن حلب ، وقد خلّف وراءه ربوعاً وأصحاباً وذكريات ذهبت مع الشباب ، وأنى يعود الشباب ، فسافر إلى مصر ليستقر جدثه الطاهر ، بعد قليل ، في أرض الكنانة ، بسفح المقطم .

الفصل الثالث

آثاره ومؤلفاته

خطه وخزانته

رأينا في ترجمة ابن العديم أنه اتصل بالعلم منذ صباه، وسمع على شيوخ أجلاء وأخذ بأسباب الحديث والفقه والأدب. وقرأنا للرجل نماذج من شعره؛ ولم نقف بعدُ على أسلوبه في النثر وطريقته في التأليف.

ولا بد لمن يتصل بالأدباء والعلماء لذلك العصر أن يترسل وأن يكتب فيما يعرض له إلى إخوانه. ولا بد لمن يؤلف في الأدب والتاريخ أن يملك خزانة حافلة جامعة. وابن العديم قمينٌ بذلك فقد طوف في البلدان والعواصم، وتعرّف إلى المؤلفين والكتاب والشعراء، وهو على ثروة وجاه.

وقد وقع لنا من خط ابن العديم وكتابته ونسخه ما يؤكد رواية ياقوت وغيره من أنه أتقن النسخ وجوّد في الخط. ووصل إلينا من كتبه التي نقل مـــا يدلنا على أن الرجل صرف أكثر عمره فيما ينفع العلم والعلماء. فقد كان يؤلف حيناً، ويجمع حيناً، وينقل طوراً من الكتب النادرة وغير النادرة ثم يستنسخ لغيره مما يقع إليه.

جاء في مخطوطة «الأخبار الطوال للدينوري» أن الناسخ نقل عن مخطوطة كتبها ابن العديم بيده، وعن هذه المخطوطة طبع المستشرق كتابه، وفي آخرها: «نُقلت هذه الترجمة من خط نُقل من خط العلامة عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد ابن أبي جرادة ناسخ النسخة التي نُقلت منها هذه النسخة»[1].

(1) انظر طبعة ليدن ص ٢ بالحاشية.

وجاء في مخطوطة « المجتنى لابن دريد » أنّ ابن العديم كتبها بخطه ، وهي من نفائس المتحف البريطاني بلندن وفي آخرها : « كتبه عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة حامداً لله تعالى على نعمه ومصلياً على محمد وآله وصحبه مسلماً ، وأتقن نسخه في اثني عشر يوماً من شهر رمضان المبارك من شهور سنة ٦٣٠ هـ »[١] . وقد أخذت عنها طبعة حيدر آباد .

وعرفنا كذلك عن خزانة الصاحب ابن العديم ما يدلنا على غناها ، فقد قرأنا في كتبه المؤلفات التي كانت عنده ، وقرأنا لابن سعيد المغربي أنه اتصل بخزانة ابن العديم ، ونقل عنها من شعر ابن الفرات[٢] ، وعبد الحكم بن اسحاق[٣] . وأخبرنا أنه نقل « من خط الصاحب الكبير كمال الدين بن أبي جرادة مما اختاره من تاريخ المسبحي »[٤] .

فالخزانة الصاحبية كانت كبيرة غنية تزخر بخط الصاحب نفسه أو بما يهدى إلى الصاحب من نسخ مكتوبة كما فعل ابن سعيد المغربي ، فقد قال في صدر كتابه « المغرب في حلى المغرب » : « كتبه بخطه لخزانة العلية الجليلة الصاحبية الكمالية عمرها الله ببقاء صدر الصدور الشامية رئيس الأئمة الحنفية ، سيد الوزراء والأصحاب الصاحب الكبير كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العُقيلي أحيا الله بطول حياته دولة الفضائل ، وأبقى بدوام بقائه نجح الوسائل مكمّل تصنيفه بإعانته عليّ بن موسى ... »[٥] .

ويظهر أن خط ابن العديم سار في مشرق البلاد وغربها حتى قال عنه ياقوت : « شاع ذكره في البلاد ، وعُرف خطه بين الحاضر والباد ، فتهاداه الملوك ، وجُعل مع اللآلئ في السلوك »[٦] .

(١) انظر طبعة حيدر آباد ١٣٦٢ هـ ، ص ٩٠
(٢) انظر المغرب ص ٨٧
(٣) انظر الكتاب نفسه ص ٩١
(٤) المصدر نفسه ص ٩٦
(٥) المغرب ، طبعة ليدن ص ٢ ، ومخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٠٣ م ، بالورقة ٩٨
(٦) معجم الأدباء ١٦/ ٢٥

وكان النـــاس يسألونه من خطه ويسترفدونه ، وقد طرّز بخطه الكتب والمحاريب. وما يزال في المدرسة الحلاوية بحلب إلى اليوم محراب جميل[1] كتب أطرافه كمال الدين بخطه سنة ٦٣٤هـ للناصر أبي المظفر يوسف بن محمد الناصر. وفي كتابه « التذكرة » خطه[2] ، والبغية كتبها بيده، ونُقلت الزبدة من خطه.

وكان يضرب بحسن خطه المثل قال ابن القيسراني :

بخدّ معذّبي آيـــات حسن فقل ما شئت فيه ولا تحاش
ونسخة حسنه قرئت فصحّت وها خط «الكمال» على الحواشي

* * *

تصانيفه هذه الخزانة العامرة ، والاتصالات المستمرة ، والشهرة الدائرة ، والعكوف على العلم ، وهذا الخط الجميل ينسخ به الكتب ، كل ذلك أغنى مكتبة ابن العديم بمؤلفات كثيرة منذ سن مبكرة .

ذكر ياقوت من مؤلفاته ، مما وصل إليه وهو يكتب مقاله حوالي ٦١٦ للهجرة ، وسن الرجل لم يبلغ الثلاثين عدة كتب وصل أكثرها إلينا وضاع أقلها.

١ ــ كتاب الدراري في ذكر الذراري

قال ياقوت : « وصنف مع هذا السن كتباً منها : كتاب الدراري في ذكر الذراري جمعه للملك الظاهر ، وقدّمه اليه يوم ولد ولده الملك العزيز الذي هو اليوم سلطان حلب »[3] وذكره ابن شاكر الكتبي[4] وفي التواريخ أن الملك العزيز ولد في ١٥ ذي الحجة سنة ٦١٠ هـ . وكان سن ابن العديم حينئذ اثنين وعشرين عاماً . وقد وصل إلينا الكتاب، طبعته مطبعة الجوائب بالاستانة . قال فيه : « فأحببتُ أن أخدمه بكتاب نفيس ، رائق المعنى أنيس ، أجمع فيه

(١) انظر صورة الخط وعبارته في إعلام النبلاء للطباخ ٤/٣٩٩
(٢) انظر صورة عنه في نهاية هذه الدراسة ففيه خط الرجل .
(٣) معجم الأدباء ١٦/٥٦
(٤) فوات الوفيات ٢/١٠١

نبذاً من ذكر الأبناء ، وأخبار الحمق منهم والنجباء ، وما ورد في مدحهم وذمهم من الأخبار النبوية ، والفقر الحكمية ، وما قيل فيهم من الأشعار الفصيحة ، والنوادر المستظرفة المليحة . فان السلطان سوق يجلب إليه ما ينفق عنده لا سيما وهو غرة العلماء وسيد الملوك الكبراء ، قد أحيا مكارمهم وإن كان أخيراً ، واستولى على الأمد منذ كان طفلاً صغيراً . »(١)

جعل المؤلف كتابه ثلاثة عشر باباً ، ذكر في أولها الحث على اكتساب الأولاد فبسط الأحاديث المأثورة والكلمات المشهورة ، وفي الثاني التحذير من الأولاد عن القرآن والحديث ، وفي الثالث مدح الأولاد والنعمة بهم ، وفي الرابع ذمهم وما يلحق من النصب بسببهم ، وفي الخامس النجباء منهم ، وفي السادس ذكر الحمق منهم ، وفي السابع محبة الآباء لأبنائهم ، وفي الثامن واجب الأبناء نحو الآباء وفي التاسع توصية الآباء معلمي أولادهم بهم ، وفي العاشر كلام الصبيان وأجوبتهم ، وفي الحادي عشر الخوف عليهم والرأفة بهم ، وفي الثاني عشر إيثار الآباء بعض الأبناء على بعض ، وفي الثالث عشر من تمنى الحياة وكره الموت لأجل الولد .

وهذه الأبواب قصيرة موجزة مزج فيها الشعر بالنثر ، والحديث بالآيات وهو شبيه بكتاب البيان والتبيين ، بل هو أشبه بالمحاسن والأضداد ، يصف الشيء ويستحسنه ثم يذكره ويستهجنه ، ويورد الشعر غير منسوب طوراً ، ومنسوباً طوراً آخر ، فهو صورة مصغرة لكتب الأدب قبله ، بل هو مقتبس عنها ، إلا ما جاء من حكايات عن أفراد أسرته ، وما حدثه أساتيذه ومشايخه لعصره ، فهو بذلك متمم لهذه الموسوعات الأدبية التي تزخر بها مكتبتنا العربية كنهاية الأرب والعقد الفريد ، والأمالي ، وغيرها من كتب الأدب . وفيه ما فيها من اسناد ورواية ، في عبارة يغلب عليها السجع ، ويشيع فيها أسلوب النثر لعصره .

* *

(١) طبعة الجوائب ١٢٩٨ هـ ص ٢٢

٢ ــ كتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة

قال ياقوت : « وصنّف كتاب الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة ، وأنا سألته جمعه فجمعه لي ، وكتبه في نحو أسبوع ، وهو عشرة كراريس »[١] . وذكره كذلك ابن شاكر الكتبي[٢] ثم ذكره حاجي خليفه[٣] . وهو كتاب في نسب أهله ومآثر جدوده ، وما لهم من فضل في القضاء والفقه والأدب والشعر . ولم يصل إلينا الكتاب إلاّ من خلال « معجم الأدباء » وقد نقله ياقوت « ضربة لا مبوباً » كما يقول فخالف بين فصوله وعباراته ، فجعله مادة لترجمة ابن العديم وآله . وقد بسطنا أكثر ما جاء فيه حين تحدثنا عن أسرة ابن العديم وجدوده.

ونحن نستطيع أن نعرف كيف كان الكتاب حين تسلّمه ياقوت ، ونستطيع أن نتصور كيف كان ترتيبه حين ننظر في كتاب « الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعرّي » فقد ألفه ابن العديم في أبي العلاء وذكر أسرة الرجل : أجداده ، وأعمامه ، وأولاده ، وأحفاده ؛ فرتبهم ترتيباً حسناً ، وذكر من شعرهم ونثرهم وأعمالهم عن مشايخه وأساتيذه .

ثم ذكر ترجمة أبي العلاء المعرّي نفسه . وقد حافظ ياقوت على بعض هذا الترتيب وخالف في بعضه .

* * *

٣ ــ كتاب ضوء الصباح في الحث على السماح

ذكر ياقوت من تصانيف ابن العديم : « كتاب ضوء الصباح في الحث على السماح صنّفه للملك الأشرف . وكان قد سيّر إليه من حران يطلبه ؛ فانه لما وقف على خطّه اشتهى أن يراه ، فقدم عليه فأحسن إليـــه وأكرمه ، وخلع عليه

(١) معجم الأدباء ١٦/٦٥

(٢) فوات الوفيات ٢/١٠١

(٣) كشف الظنون ط. استانبول ١٩٤١ ، ١/٣٠

وشرّفه »[١] . وذكره حاجي خليفة بعنوان « ضوء المصباح في الحث على السماح »[٢].

والملك الأشرف هو مظفر الدين موسى بن الملك العادل وابن عمّ الملك الظاهر تسلّم حرّان وما معها سنة ٥٩٨ هـ. وذكر التاريخ أنه طمع في ملك حلب سنة ٦١٥ للهجرة ؛ وقد استدعاه أتابك العزيز ليأخذ أعمال حلب مع ما يختاره وأن تكون الخطبة له والسكّة باسمه ، فأجاب إلى ذلك ، وسار إلى الروم في عساكره فكسرهم ، ثم عاد إلى حلب .

ولكننا لم نقع على ذكر للكتاب في فهارس المكتبات الخطّية ؛ فلعله فقد في الكتب الكثيرة التي امحى أثرها وضاع رسمها .

٤ ـ كتاب في الخط وعلومه ووصف آدابه وأقلامه وطروسه

قال ياقوت في تصانيف ابن العديم : «كتاب في الخط وعلومه ووصف آدابه وأقلامه وطروسه ، وما جاء فيه من الحديث والحكم ؛ وهو إلى وقتي هذا لم يتمّ »[٣]. وذكره كذلك ابن شاكر الكتبي[٤] في الفوات .

ولعل الكتاب لم يتمّ ، بل لعله ضاع كذلك في الآثار المفقودة . ولو وصل إلينا لوقفنا على كتاب بارع في الخط وعلومه، ووصف الطروس والأقلام ؛ وهو فن فريد جوّد فيه ابن العديم وأتقن حتى اشتهر به ، وخبرته في ذلك ثمينة جداً ، فهو أحسن من يؤلف في هذا الباب ،فقد قالوا إنه سبق ابن مقلة وغيره من أعلام الخط العربيّ . ولعل يوماً يأتي فيكتشف الكتاب ، ويفرد الباحثون له دراسة خاصة كما أفردوا لغيره من فنون العلم والأدب ؛ فيحتل مكانه في

(١) معجم الأدباء ١٦/٦٥

(٢) كشف الظنون ١٠٩٠/٢

(٣) معجم الأدباء ١٦/٦٥

(٤) فوات الوفيات ١٠١/٢ : « كتاب في الخط وعلومه وآدابه ووصف ضروبه وأقلامه »

القرن الرابع عشر كما احتل مكانه في عصور الاسلام المتقدمة ، فقد كان مبعث شهرة وتقدير وإكبار واعجاب في صفوف العلماء والكتاب والملوك والأمراء .

* * *

٥ـ كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري [1]

يغلب على الظن أن ابن العديم ألف هذا الكتاب حوالي سنة ٦٤٠ هـ فقد ذكر فيه وفاة شيخه ابن شاكر سنة ٦٣٨ هـ[2] بمعرّة النعمان . ولم يذكر ياقوت هذا الكتاب لأنه ألف بعد وفاته . وقد صنعه ابن العديم بعد أن وقف على جملة من مصنفات عالم معرة النعمان أبي العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان. وجعله دفاعاً عن أبي العلاء، فقد قال في فاتحته : « قصده جماعة لم يعوا وعيه، وحسدوه إذ لم ينالوا سعيه، فتتبعوا كتبه على وجه الانتقاد، ووجدوها خالية من الزيغ والفساد، فحين علموا سلامتها من العيب والشين، سلكوا فيها معه مسلك الكذب والمين، ورموه بالالحاد والتعطيل، والعدول عن سواء السبيل . فنهم من وضع على لسانه أقوال الملحدة، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذي قصده، فجعلوا محاسنه عيوباً وحسناته ذنوباً ، وعقله حمقاً وزهده فسقاً ، ورشقوه بأليم السهام ، وأخرجوه عن الدين والاسلام ، وحرّفوا كلمه عن مواضعه ، وأوقعوه في غير مواقعه »[3] . ثم يقول : « فابتدرتُ دونه مناضلاً ، وانتصبتُ عنه مجادلاً ، وانتدبت لمحاسنه ناقلاً ، وذكرتُ في هذا الكتاب مولده ونسبه ، وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه الصحيح ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القويّ وجدّه ، وطعن القادح فيه وردّه ، ودفع الظلم عنه وصدّه »[4].

وقد بسط ابن العديم القول في قبيلة المعرّي قبل الاسلام وبعده ، ثم تحدّث

(١) جاء في فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١٠١/٣ : « رفع الظلم والتجري.»

(٢) تعريف القدماء ٥٠٦

(٣) تعريف القدماء ٤٨٤

(٤) تعريف القدماء ٤٨٥

عن أفراد الأسرة وما لهم من مكانة في المجتمع ، وروى من أدبهم وشعرهم ، وذكر وفياتهم وكتبهم . ثم تطرق إلى أبي العلاء نفسه ، وبحث في شيوخه ومن قرأ عليه وروى عنه ، وما وقع إليه من حديثه مسنداً ، وما اتصل به من تصانيفه وتآليفه وأشعاره . ثم ذكر رحلة المعرّي إلى بغداد وعوده إلى المعرّة وانقطاعه في منزله ؛ وعقد باباً بعد ذلك في ذكائه وفطنته وحرمته عند الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء ، واضطلاعه بالعلم والأدب ، ومعرفته باللغة ولسان العرب ، وكرمه وجوده ، وقناعة نفسه وشرفها .

وهذا الكتاب في طبعته الأخيرة[١] يبلغ خمساً وتسعين صفحة في ترتيب وتبويب عُرف بهما ابن العديم . وهو كذلك أقوى المصادر وأوسعها وأوثقها عن أبي العلاء ، بل لعله من أطولها في نفع وفائدة . وهو صورة ٌ لما ألف ابن العديم في أسرته ونسبه وأدب أجداده وأعمامه ، وما وقع من تصانيفه . لا يكاد يختلف في طريقته عما أورد ياقوت من كتاب «الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة» مما فصلنا القول فيه ، ولو وصل إلينا لكان شبهه بأخيه شبه القطرة بالقطرة ، ترتيباً وبلاغة وحجة . وعبارته في كليهما كعبارته في كتبه النثرية كلها يلتزم السجع اللطيف ، ويتكلف فيه أحياناً على عادة عصره ، ويجري به أحياناً مع الطبع فيبلغ به ذروة التفوق والإجادة في الترسل والنثر .

ومن قرأ كتب ابن العديم النثرية وجد أنه ناثر بليغ كما وجد في شعره أنه شاعر مجيد ، في لغة قوية وبيان متمكن يقع من اللغة وفصاحتها موقع الفحول المبرزين .

* * *

٦ ــ تذكرة ابن العديم

أغفل الذين ترجموا لابن العديم هذا الكتاب . ولعله لم يقع إليهم لأنّ نسخته نادرة فذة ، ظفرنا بها فصورناها ، وحققناها وستمثل قريباً للطبع . وهي شبيهة

(١) نشر الأستاذ الطباخ هذا الكتاب وهو يترجم لابن العديم في كتابه إعلام النبلاء ، ونشرته كذلك لجنة إحياء آثار أبي العلاء المعري عن نسخة متأخرة ، وفي دار الكتب المصرية نسخة قديمة جداً لم تمسها يد النشر الحديث .

بكتبه الأخرى ، ففيها عبارة الرجل وأسلوبه ؛ وفيها اسناده وكتبه ، وفيها سعة اطلاعه على الشعر والنثر والأدب القديم . غير أنها تزيد على كتبه السابقة في كثرة نقولها ، فهي تمثل ما في خزانته القيّمة ، وتصور لنا غناها وعدد المصادر التي فيها . وهي تزيد على كتبه بما يرويه من طرف وقعت له ،وحوادث شهدها بنفسه، وشعر سمعه مما لم يقع في كتاب ، ومخطوطة نقل منها وامتنعت على غيره . فالتذكرة بهذا كله ثمينة قيمة لا توازن بالكتب التي مرت ولا تعدل بها . وهي تتبع أسلوب القدماء في جمع ما يقع إليهم من أدب فيه الشعر والنثر ،وفيه الحكمة والموعظة ، وفيه التاريخ والعبرة .

قسمها صاحبها إلى ستة عشر جزءاً. وقد ضاعت الأجزاء الأربعة الأولى ، وهي لا شك شبيهة بالأجزاء الباقية . فالمؤلف فيما نرى لم يقسم كتبه إلى أقسام خاصة وأجزاء معينة أرادها وبوّبها ؛ وإنما جعلها لتخفيف الثقل على القارئ ؛ وقسمها إلى مراحل يستريح عندها المطالع . قيّد فيها ما وصل إليه من أدب غال وتحفة جديرة بالذكر .

ولعلنا حين نورد بعضاً من الأسماء الواردة في تذكرته نستطيع أن نقرّب صورة الكتاب إلى الأذهان نعرّف به ولا نفي الحق في تلخيصه . يقول :

قرأت بخط عبد المنعم بن الحسن بن اللُّعيبة الحلبي ... وقرأتُ بخط الوزير أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس الحلبيّ ... وأخبرني القاضي الأجلّ بهاء الدين أبو محمد الخشاب بحماة ... وقرأتُ في كتاب العشرة ... وقرأتُ بخط جد أبي القاضي أبي غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ... ونقلتُ من خط أبي المكارم محمد بن عبد الملك بن أبي جرادة الحلبي ... وقرأتُ بخط الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ ... وأنشدني أحمد بن مسعود الموصلي ... وأنشدني هبة الله ابن عليّ العراقي ... وقرأتُ بخط أبي الفتح عثمان بن جني : حدثني المتنبي ... وقرأتُ بخط الوزير أبي القاسم بن المغربي ... ووقع إلي في أوراق والدي – رحمه الله – كتاب ...

... وغير ذلك من موضوعات وأسماء تضيف كثيراً إلى ما نعرف عن الأدباء والشعراء ففيها من المعارف ما لم يصلنا في مخطوط ومطبوع . وفيها من الأمهات ما ضاع ، وقد وصفها ابن العديم فعدّ الأوراق ونوعها وخطها كأحسن ما يصف مختص بالخزائن والمخطوطات وفيها تحقيق للوفيات وتحديد للساعات.

وقد علّق في أطراف هذه النسخة مؤرخون متأخرون نذكر منهم علاء الدين بن خطيب الناصرية المتوفى ٨٣٤هـ وغيره . والتذكرة لكمال الدين عمر بن أحمد بن العديم لا شك في ذلك ، فقد ذكر فيها أعمامه وأجداده ووالده ، وحدّث عنهم . قال في الصفحة ٢٩٦ : « أخبرني عمي جمال الدين أبو غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة رحمه الله » وفيه من الحوادث التاريخية ما يتفق وزبدة الحلب نصاً ومعنى ؛ بل فيه ما يضيف إليها ويوضحها . وعلى النسخة خطه وسماعه ، وتاريخ النسخة وتأليفها وقد ورد بالصفحة ٣٥١ : «سمعتُ ما تضمنه هذا الجزء من شعر بهاء الدين زهير بن محمد عليّ بلفظه في يوم الخميس سادس شهر رجب من سنة سبع وثلاثين وستمائة ، وسمع ابناي أحمد وعبد الرحمن» فالتذكرة كتبت في زمن قريب من زمن الانصاف والتحري ، ومؤلفها في الخمسين من عمره تقريباً .

* * *

٧ ــ الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب

لم يذكر الذين ترجموا لابن العديم هذا الكتاب ، فأغفلوه كما أغفلوا الكتاب الذي قبله ، ولكننا رأيناه في مكتبة برلين[1] . سنة ١٩٤٦ ، وعلى الصفحة الأولى منه : ألفه «عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم» ، ورأينا فيه مواضيع خاصة بالأطباء وأصحاب العلاجات والمختصين بالنبات ، فهو يبحث في الشهوة والمآكل والمشرب والطيب والمسك والعنبر ، وعمل الأدوية ، ويعالج طبيخ السفرجل والتفاح

(١) رقم ٥٤٦٣ ، وتاريخه ١٠٠٠ للهجرة .

والدجاج ، وصنع ماء الورد؛ فهو مختصر في المعاجين. ورأينا نسخة منه كذلك في القاهرة ودار الكتب المصرية[١] ؛ وضعه المفهرس في باب العلوم الصناعية.

ومن هذا الكتاب نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق ، ومنه نسخة في الأستانة.

وقد ذكره حاجي خليفة[٢] بهذا العنوان ولم ينسبه إلى أحد ، كما أننا لم نجد على نسخة دار الكتب المصرية ونسخة الظاهرية نسبة إلى أحد. ولكننا لا نستبعد أن يكون الكتاب لابن العديم فقد وقعنا فيه على موضوعات طرقها في تذكرته ، قريبة منها في النص والمعنى ، وفيها عبارات برمتها تشبه أسلوب ابن العديم. وليس غريباً على ابن العديم أن يطرق الموضوع ، فقد كتب المؤلفون فيه ، ليدلوا على تضلعهم ومعرفتهم .

° ° °

٨ ــ كتاب تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد

ذكر الكتاب ابن شاكر الكتبي[٣] ، وحاجي خليفة[٤] ، ولكنه لم يقع إلينا ، ولعل موضوعه يتصل بكتابه الأول «الدراري في ذكر الذراري» بل لعله فصل من فصوله أعمل فيه المؤلف التوسع والنقل ، أو لعله أنشأه لمناسبة اجتماعية قد تكون لفقد أحد أولاده ، أو أحد أبناء الملوك الذين اتصل بهم ، فعمله لهم تبريداً للألم وبعثاً للصبر على الولد .

وهناك كتابان ذكرهما الشيخ محمد العرضي (من رجال القرن الحادي عشر) ونسبهما إلى ابن العديم ؛ وهما :

١ ــ الإشعار بما للملوك من النوادر والأشعار .

---

(١) رقم ٧٤ علوم صناعية ، وتاريخه ٧٠٣ هـ.

(٢) كشف الظنون ، طبعة استانبول ١٩٤١ ، ٣٠١٤/٢

(٣) فوات الوفيات ١٠١/٢

(٤) كشف الظنون ٣٣٧/١ ؛ وقد نسب إلى السيوطي كتاب قريب في عنوانه من هذا الكتاب .

ب- مراد المراد ومواد المواد

ولكننا نقف منهما موقف الشك والريبة، لأن المصدر متأخر انفرد بذكرهما ولعلها لأحد أولاد ابن العديم أو أحد أحفاده، صنعها في عصر متأخر غلبت الركاكة فيه على الطبع، وأسفّ فيه السجع، وهما عن الكمال بن العديم بعيدان كل البعد.

* * *

٩ ـ بغية الطلب في تاريخ حلب

ذكره ياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) في تصانيف ابن العديم قال: «كتاب تاريخ حلب في أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ومن كان بها من العلماء ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب»[١]

وذكره ابن العديم نفسه في كتابه الانصاف والتحري ـ وقد ألفه حوالي سنة ٦٤٠ هـ- فقال: «ومن أراد استقصاء أخبارهم وفضائلهم وأشعارهم فعليه بكتابي المطوّل في تاريخ حلب، ففيه مقنع لمن قصد شيئاً من ذلك أو طلب»[٢]

وقال أبو شامة (المتوفى سنة ٦٦٥ هـ) : «وسوّد تاريخاً بحلب وبيّض بعضه»[٣].

وذكره ابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ) ، ونقل عنه في عدة مواضع منها، قال في ترجمة وهب بن وهب: «وقد نقلتها من خط القاضي كمال الدين ابن العديم من مسودة تاريخه[٤]». وقال في ترجمة صلاح الدين يوسف بن أيوب: «ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي»[٥].

---

(١) معجم الأدباء ١٦/٥٤

(٢) تعريف القدماء ٥١١

(٣) ذيل الروضتين طبعة مصر ١٩٤٧، ص ٢١٧

(٤) وفيات الأعيان ٣/١٨٣

(٥) المصدر نفسه ٣/٣٧٦

ونقل عنه ابن شدّاد (المتوفى سنة ٦٨٤ هـ) واعتمد عليه، وجعل منه مادة كتابه « الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة »[١] ، وذكر الكتاب في كل فصل من فصوله .

وقال فيه أبو الفداء (المتوفى سنة ٧٣٢ هـ) : « ألف تاريخ حلب وغيره من المصنفات »[٢]

وقال فيه ابن الوردي (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) : «وله تاريخ حلب»[٣]. وذكر تصانيفه ابن شاكر الكتبي (المتوفى سنة ٧٦٤هـ) فقال : «ومنها تاريخ أدركته المنية قبل إكمال تبييضه »[٤].

وقال فيه ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) : « وصنّف لحلب تاريخاً مفيداً قريباً من أربعين مجلداً »[٥].

وقال ابن خطيب الناصرية (المتوفى ٨٤٣ هـ) في خطبة تاريخه الدر المنتخب في تاريخ حلب : « وجمع لها تاريخاً مستوعباً لذلك الامام العلامة أبو القاسم عمر ابن أحمد بن العديم الحلبي الحنفي — رحمه الله تعالى — فأتقن وأجاد وأطال . ولم يسبقه أحد إلى تاريخ لها على وجه الخصوص وسماه بغية الطلب في تاريخ حلب رتبه على حروف المعجم ، وسوّده نحو الأربعين جزءاً كباراً ، والمبيضة كذلك. اخترمته المنية قبل كمال تبييضه »[٦]. وقال المؤرخ في مكان آخر حين ترجم لابن العديم : « وجمع لحلب تاريخاً كبيراً أبدع فيه ما شاء الله ، ومات وبعضه مسودة ولو تكمل تبييضه كان أربعين مجلداً »[٧] .

(١) هو كتاب في عدة أجزاء عن حلب ودمشق والجزيرة، ومخطوطاته عديدة .

(٢) تاريخ أبي الفداء ٣/٢٢٦

(٣) المختصر في اخبار البشر ٢/٢١٥

(٤) فوات الوفيات ٢/١٠١

(٥) البداية والنهاية ١٣/٢٣٦

(٦) مخطوطة بمكتبة الأوقاف في حلب ج ١ بالورقة ١ ظ

(٧) النسخة نفسها ٢/١٠٦

وقال العيني (المتوفى ٨٥٥ هـ) : « وصنف لحلب تاريخاً مفيداً يقرب من أربعين مجلداً »[١] .

وترجمه ابن تغري بردي (المتوفى ٨٧٤ هـ) فقال : « قلتُ : وهو صاحب تاريخ حلب وغيره »[٢] .

وقال محبّ الدين محمد بن الشحنة (المتوفى سنة ٨٨٣ هـ) في صدر كتابه الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، قال : «جمعه تاريخاً مستوعباً لها الامام العلامة كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن العديم الحلبي الحنفي ، فأتقن وأجاد وأطال ولم يبيض منه إلا اليسير وأطال فيه من ذكر الروايات والطرف ، فجاء معنى قليلاً في لفظ كثير ، ولم يسبقه أحد بتاريخ لها على الخصوص وسمّاه بغية الطلب في تاريخ حلب رتبه على حروف المعجم . كما أخبرني بذلك الأمير النقيب بدر الدين الحسيني نقيب السادة الأشراف بالمملكة الحلبية — رحمه الله — أن مسودته كانت تبلغ أربعين جزءاً كباراً والمبيضة تجيء كذلك ، لكن اخترمته المنية قبل إكمال الأمنية ، وتفرقت أجزاؤه قبل الفتنة التيمورية . فلا تجد الآن منها إلا نزراً لم أقف منها إلاّ على جزء واحد بخطه فيه بعض حرف الميم ... وهو عندي »[٣]

وألف موفق الدين أبو ذر سبط ابن العجمي (المتوفى سنة ٨٨٤ هـ) كتابه كنوز الذهب في تاريخ حلب[٤] ، واعتمد عليه ، وذكره في كثير من المواقع والصفحات .

وذكر السخاوي (المتوفى سنة ٩٠٢ هـ) المصادر التاريخية وقال فيها : «وعدة مجلدات من تاريخ حلب للكمال أبي حفص عمر بن أحمد بن العديم وسماه بغية الطلب كانت عند صاحبنا الجمال بن السابق الحموي بخط مؤلفه ، ونقلها منه صاحبنا ابن فهد .

---

(١) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوطة مصر ١٥٨٤ ، بالصفحة ٤٨٥

(٢) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، مخطوطة مصر بالورقة ٤٦٨

(٣) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، طبعة سركيس ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ٧

(٤) ألف كتابه في الحوادث والخطط والتراجم وهو في أجزاء عدة

أولها : من أحمد بن جعفر بن محمد بن عبدالله بن المنادي إلى آخر أحمد بن عبد الوارث بن خليفة .

وثانيها : وليس تلوه مع الذي يليه ــ وأولها : أحمد بن محمد بن متويه . وآخرها في أثناء ترجمة أمية بن عبدالله بن عمرو بن عثمان .

ورابعها : من الحجاج بن هشام إلى آخر الحسن بن عليّ بن الحسن بن شواس .

وخامسها : والذي يليه ــ وهما : من الحسين بن عبيد الله الخادم إلى أثناء دعلج بن أحمد بن دعلج.

وسابعها : والذي يليه وهما : من أثناء راجح بن اسماعيل الأسدي إلى سعيد ابن سلام .

وتاسعها : من مشرق بن عبدالله الحلبي إلى أثناء الوليد بن عبد العزيز بن أبان ، ولكن ليس فيه حرف الهاء جرياً على عادة كثيرين في تأخيره عن الواو . ووقفت على المسودة التي بخط المؤلف من هذا الجزء بخصوصه عند ابن فهد، وعليها بخط المؤلف تلقيبه بالرابع عشر .

وعاشرها : الكنى إلى آخر الأنساب .

ورأيت مجلداً آخر منه فيه بعض البلدان ، وكان عند المحب بن الشحنة منه بخط المؤلف بعض الأجزاء مما لم أطالعه »(١) .

وقال جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، وهو يعدد مصادره : « وأما الشام فوقفنا على تاريخها لابن عساكر وأعظم به ، وتاريخ حلب لابن العديم »(٢) .

وذكره رضي الدين بن الحنبليّ (المتوفى سنة ٩٧١ هـ) في كتابه در الحبب في تاريخ حلب ، فقال : « فكان ممن أقدم وكتب لها تاريخاً حسناً فيا تقدم ، المولى الصاحب صاحب المآثر والمناقب كمال الدين أبو حفص عمر بن أبي جرادة

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، طبعة القدسي بمصر ، ص ١١٤

(٢) بغية الوعاة ، طبعة مصر ١٣٢٦ هـ ، ص ٤٦١

العقيلي المعروف بابن العديم الحلبي الحنفي، وهو التاريخ الكبير الذي سماه بغية الطلب في تاريخ حلب ، وانتزع منه تاريخه المسمى بزبدة الحلب في تاريخ حلب حتى انتزعنا منه وزدنا عليه »[١].

وترجم له عبد القادر الغزي التميمي (المتوفى سنة ١٠٠٥هـ) قال : «والتصانيف الرائعة منها تاريخ حلب لم يكمل »[٢].

وقال المقّري (المتوفى سنة ١٠٤١هـ) : « وحكى ابن العديم في تاريخ حلب ما نصه »[٣].

وقال حاجي خليفة (المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ) : « أول من صنف فيه على ما في الدر الحبب كمال الدين أبو حفص عمر بن أبي جرادة عبد العزيز المعروف بابن العديم الحلبي المتوفى سنة ستين وستمائة. جمع فيه أعيانها على ترتيب الأسماء.

قال اليونيني في الذيل : إنه يكون بياضه في أربعين مجلداً ومات وبعضه مسودة . انتهى . وسماه بغية الطلب ثم انتزع منه كتاباً سماه زبدة الحلب »[٤]. ثم ذكر صاحب كشف الظنون عمل ابن خطيب الناصرية في الذيل عليه، وتذييل ابن العجمي في كنوز الذهب ، وذكر بعد ذلك ذيل الكنوز لابن الحنبلي في الدر الحبب ، وذكر التواريخ الأخرى عن حلب.

وقال ابن العماد الحنبلي (المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ) في ابن العديم : « وجمع تاريخاً لحلب في نحو ثلاثين مجلداً »[٥].

* * *

أجزاء الكتاب

رأينا أن « تاريخ حلب » مشهور معروف عند المؤرخين والأدباء فقد عرفه في القرن السابع ياقوت ، وأبو شامة ، وابن خلكان ، وابن شدّاد . وفي القرن الثامن أبو الفداء ،

---

(١) در الحبب ، مخطوطة الأوقاف ، بالورقة ١ ظ.
(٢) الطبقات السنية في تراجم الحنفية ، مخطوطة مصر ، مكتبة حلم ٥٥ ، بالورقة ٥٥٣و
(٣) نفح الطيب ، طبعة أوربة ٦٣١/٢
(٤) كشف الظنون ، طبعة استانبول الجديدة ٢٩١/١
(٥) شذرات الذهب ٣٠٣/٥

وابن الوردي ، وابن شاكر الكتبي ،وابن كثير . وفي القرن التاسع ابن خطيب الناصرية ، والعيني ، وابن تغري بردي ، وابن الشحنة ، وسبط ابن العجمي. وفي القرن العاشر السخاوي ، والسيوطي ، وابن الحنبلي . وفي القرن الحادي عشر الغزي التميمي ، والمقّري ، وحاجي خليفة ، وابن العماد .

وبعض هؤلاء المؤرخين نعت الكتاب بالكبير المفيد ، وبعضهم اكتفى بذكره ، ولكن اثنين منهم ذكرا أجزاءه لعهدهما ، وهما ابن الشحنة المتوفى سنة ٨٨٣ ، والسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ ، أي بعد تأليفه بما يقرب من القرنين ونصف القرن . أما ابن الشحنة فقد ذكر جزءاً عرفه ، فيه بعض حرف الميم ، وفيه ترجمة الملك العادل نور الدين ، وبلغه عن الجزء الأول من الكتاب أنه يحتوي على ذكر حلب وفضائلها ومعاملاتها .

وأما السخاوي فقد وصف الأجزاء التي كانت عند صاحبه الجمال بن السابق الحموي بخط المؤلف ، وذكر أوائل الأجزاء وأواخرها بالحروف والأسماء . وقد وصلت إلينا هذه الأجزاء جميعاً ، وصورناها جميعاً ، وهي لحسن الحظ تنطبق في أوصافها على ما ذكره السخاوي ، فهي هي نفسها بخط كمال الدين بن العديم نفسه ، وعلى أكثرها خط « محمد بن محمد بن السابق الحموي» وعلى ظاهر بعض النسخ : « أنهاه مطالعة ونسخاً داعياً لمالكه بطول البقاء ودوام الارتقاء محمد المدعو عمر بن محمد بن فهد الهاشمي المكي ».

ولن نفيض في وصف هذه النسخ هنا ، ولن نبسط طريقتنا في التعرف إليها وترتيبها ، وإنما نحيل القارئ إلى الجزء الأول من « بغية الطلب» ، فنحن نطبعه في القاهرة المعزّية ، ونصدره بدراسة مطولة يدرك معها القارئ سبب سرورنا ، ومبلغ سعادتنا في تسلّمها جميعاً في القرن الرابع عشر كما ذكرها السخاوي في القرن العاشر الهجري.

* * *

بدأ ابن العديم « تاريخ حلب » في عهد ياقوت ، أي في صدر شبابه ، وقضى عمره وهو يهيئه ويكتب فيه حتى أعجلته المنية فلم يتمه . وما نظن أنه نقله إلى نسخة أخرى ، وما نظن إلا أنه تركه مسوّدة لم يبيضه ، وقد كان ينتظر أن يتاح له إتمامه على الخطة التي رسم ، لكن الأحداث التاريخية واشتغاله بالسياسة والسفارة حالت دون تحقيق أمنيته ، لذلك بقي الكتاب مبتوراً .

خطة البغية

غير أن الأجزاء الموجودة — وهي غير قليلة — ترشدنا إلى خطته وطريقته ، فقد بدأ أول كتابه بتحديد حلب ومعاملاتها ومضافاتها لعهده ، فتحدث عن أنطاكية وثغور الشام والجبال والآثار ، والبحار والأنهار ، والبحيرات والمزارات ، وذكر منبج ، والرصافة ، وخناصرة ، وبالس ، والمعرّة ، ومعرة مصرين ، وطرسوس ، والباب ، وحماة ، والمصيصة ، وأفاض في ذكر الحصون وغيرها .

ثم بدأ التراجم على الحروف ، فصنع كما يصنع المحدّثون بذكر الأسناد المتسلسلة لاثبات ترجمة الرجل وما عرف عنه ، وما نقل من كتبه ، وما وصل إلى سمعه من حديثه وشعره وكتبه ونقوله . وهو في ذلك شبيه بابن عساكر في تاريخ دمشق ، وبالخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وسنفصل الفرق بينه وبينهم في مقدّمة بغية الطلب ، إذ نوازن بين ما نظهره من تاريخه الكبير ، وما ظهر من تاريخ بغداد وتاريخ دمشق .

فابن العديم لم يثبت خبراً إلا ذكر المصدر الذي استقى منه ، ولم يورد شعراً إلا وصف لنا الديوان الذي وصل إليه أو الكتاب الذي قرأه فيه ، ولم يسرد حديثاً أو حكاية إلا قال : سمعتُ ، وقرأتُ ، وأخبرنا ، وحدثنا ، وحضرتُ ، وشاهدتُ ، وأنبأنا ، وقال لي عمّي ، وقال لي الوزير ، وقال ابن العجمي ، ووقع إليّ من كتاب فلان ، وسيّر إليّ القاضي أبو محمد الحسن بن ابراهيم الخشاب أوراقاً بخطه ذكر أنه نقلها من فلان وفلان ... إلى أقصى ما يستطيع أن يصنعه رجل ثقة ومؤرخ حجة ، ومحدّث ثبت ، وقاض منصف حين يعمل التاريخ .

وهو بهذا كله ثمين قيّم، وسجلّ مفصّل لتاريخ الشام على اختلاف عصورها ؛ وتاريخ عظيم لمدينته حلب ورجالها ومن مرّ بها، ومن دفن فيها ومن تحدّث عنها.

وهو بذلك أحصى المصادر التي نقل عنها واستقى منها كما فعل في كتابه «التذكرة» ، ذاكراً الخطّ والورقة ، ومقدار ما نقل ، معززاً ذلك بالأسناد المتواترة. وهو بذلك حفظ أثمن ما في المصادر والكتب ، نفتقدها اليوم فلا نجدها ، ولهذا عدّه المؤرخون لعصره وبعد عصره حجّة في تاريخ حلب ، استوعب أيامها منذ صدر الاسلام حتى منتصف القرن السابع الاسلامي ، وكل من تحدّث عن هذه العصور وألم بتاريخ حلب فيها يعدّ عيالاً عليه ومستقياً منه .

* * *

أثر الكتاب في التواريخ

أثار هذا الكتاب اهتمام المؤرخين الذين أفردوا لحلب كتاباً أو ذكراً. وقد تأثر خطاه كثير ممن جاء بعده ، فحذوا حذوه ، وسعوا سعيه فمنهم من أخفق ومنهم من وفق . ومنهم من أعاد في كتابه ما قال ابن العديم وردّد ما قرأ فيه ، ومنهم من لخص منه وأكمل عنه إلى زمنه . وهذه التواريخ كلها بين أيدينا ، جلبناها كذلك مخطوطة مخطوطة ، لم نقصر في السفر وراءها والسعي في تصويرها ، وذلك لنقف على الذين نقلوا عنه ؛ ونقارن ما عندهم إلى ما وصل إلينا . وسنذكر في إيجاز أسماء من ألف بعده وسار سيرته وعناوين كتبهم :

كتب ابن شدّاد (المتوفى سنة ٦٨٤ هـ) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، في أجزاء عدة ، فوصف حلب والشام ، وفلسطين والجزيرة . وألف ابن خطيب الناصرية (المتوفى سنة ٨٤٣ هـ) الدر المنتخب بتكملة تاريخ حلب ، فترجم للرجال بعد ابن العديم حتى عصره . وتبعه ابن الشحنة (المتوفى سنة ٨٨٣ هـ) فاختصر من ابن العديم ، وأخذ من فصوله ، وأوجز في كتاب سماه الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ؛ وذيل سبط ابن العجمي (المتوفى سنة ٨٨٤هـ) على ابن خطيب الناصرية وذكر خطط حلب وحوادثها ؛ وسمّى كتابه

كنوز الذهب في تاريخ حلب . ثم جاء ابن الحنبلي (المتوفى سنة ٩٧١هـ) فترجم للرجال حتى عصره في كتابه در الحبب في أعيان حلب متابعاً خطة البغية ، وألف الزبد والضرب ، فلخص زبدة الحلب وزاد عليها كذلك إلى عهده . وجاء بعده ابن ميرو فكتب في التراجم والأعيان بحلب لعصره ، والكتاب مسودة بخط المؤلف .

وكتب المعاصرون من رجال حلب تاريخاً لها جمعوه من بعض هذه المصادر مما وصلت إليه أيديهم ، فألف الأستاذ راغب الطبّاخ كتاباً في سبعة أجزاء ، سماه إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء ، وهو مطبوع ، سجّل فيه حوادث البلد على السنين ، ثم ترجم للرجال المعاصرين حتى تاريخ كتابته . وألف معاصره المرحوم الشيخ كامل الغزي كتاباً سماه نهر الذهب في تاريخ حلب وهو في أربعة أجزاء ، طبع منها ثلاثة ، خصّها بوصف البلد وخططها وحوادثها ، وكتب المرحوم الأستاذ أنطون الصقّال كتاباً في تاريخ حلب ، ما يزال مخطوطة ، ونقل بيشوف عن الزبدة .

ويلاحظ القارئ أننا اكتفينا بذكر الذين خصّوا كتباً بتاريخ حلب[1] ، ولو أننا عمدنا إلى ذكر من نقل عنه إلى تاريخه ، وسرد من عبارته في تأليفه لطال الأمر وأخرجنا ذلك عن الخطة المرسومة لهذا الكلام . ولعل أكبر أثر للبغية في تواريخ حلب هو الذي تركه ابن العديم نفسه إذ جعل خلاصتها في زبدة الحلب مما سنتحدث عنه في الفصل التالي

(١) عندنا كتاب « حضرة النديم من تاريخ ابن العديم » جمعه ابن حبيب مؤلف درة الأسلاك في دولة الأتراك ، وخصّ فيه ذكر الشعراء الذين وردوا في البغية وبسط من شعرهم ، وهو كذلك وقف على أكثر الأجزاء التي وصلت إلينا . وقد ذكر كتابه هذا في تاريخه درة الأسلاك ، وأطن عنه كما نقول اليوم .

الفصل الرابع

زبدة الحلب

سبب تأليفه

مكانة حلب بين البلدان

عكف ابن العديم على تاريخ حلب مرة ثانية يكتب فيها على السنين بعد أن كتب على الحروف ، فقد أراد أن يفعل أولاً كما فعل مؤرخو البلدان ، ثم أراد أن يصنع ثانياً ما صنع الطبري وابن الأثير وغيرهما ، مقتصراً على ما يلم ببلده وما يتصل بها .

وقد يتساءل المرء عن السرّ في عكوف الرجل على بلده يكتب فيه أولاً ويتكب فيه ثانياً فما يني ولا يقف . أهو تعصّب للبلد، أم حب مسرف لأهله، أم تفاخر وتنافس ؟! لعل الذي دفع ابن العديم بعضُ هذا ، بل لعله رأى غير ما نرى ، فنظر في البلدان الاسلامية لعصره ، وقد شرّق فيها وغرّب ، زار العراق والحجاز ، وعرف القدس واتصل بمصر، فرأى أن هذه البلدان جميعاً تنظر إلى حلب نظر الإكبار والإعجاب .فقد كانت البلد مبعث حركة ونشاط ، وحرب وقتال وجهاد ونضال منذ فجر الاسلام حتى عصره ؛ منها كانت تهبّ الجيوش ذابّة عن الحياض ، وبغداد بعيدة ، والحجاز غائبة ، ومصر مراقبة . وكان الشعراء والعلماء والشيوخ والفضلاء إليها يفدون ، فكأنها كعبة يحجّ إليها الناس من كل فجّ عميق ، يقصدها العلماء والشعراء من مصر والعراق ، يعمرون مدارسها وحلقاتها ، ويملئون صدر أهلها بالشعر والنثر .

وقد وصفها ياقوت في عصر ابن العديم فقال : « وحلب أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ والفضلاء الرواسخ » . وقال كذلك في امتداد ملكها ، ومسافة ما بيد مالكها وهو الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الملك الناصر : « من المشرق إلى المغرب مسيرة خمسة أيام ، ومن الجنوب إلى الشمال مثل ذلك ، وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لأهلها ، ليس للسلطان فيها إلاّ مقاطعات يسيرة ونحو مائتين ونيف قرية مشتركة بين الرعيّة والسلطان »(١) .

وذكر ياقوت أن الوزير القفطي — وقد كان وزير صاحب حلب ومدبّر دواوينها آنئذ — هو الذي وقفه على الجريدة بذلك وأسماء القرى وأسماء ملاّكها. وذكر أنها تقوم برزق خمسة آلاف فارس موسّع عليهم ، وأن في أعمالها إحدى وعشرون قلعة . وقد كتب ياقوت هذا الكلام سنة ٦٢٦ هـ . لأنه جاء في أثناء حديثه قوله « وقد ارتفع إليها في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ ... » .

وأضاف ياقوت قوله : « وما زال فيها على قديم الزمان وحديثه أدباء وشعراء ولأهلها عناية بإصلاح أنفسهم ، وتثمير الأموال فقلّما ترى من نشئها من لم يتقيّل أخلاق آبائه في مثل ذلك ؛ فلذلك فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة ، ويتوارثونها ويحافظون على حفظ قديمهم بخلاف سائر البلدان » .

هذه هي حلب في عهد ابن العديم ، وهذه سعتها ومكانتها وصفها ياقوت وصفاً دقيقاً ، لم نجد له مثيلاً عند المؤرخين ، بيّن فيه أهميتها ، فكأنه أراد أن يدفعنا إلى تلمّس تاريخها والتعرف إلى عظمتها ، وكأنه أراد أن يقول إن لجوء العلماء والمؤرخين إليها كان لما لها من موقع مفرد فذّ . وهذا في رأينا سبب من الأسباب التي دفعت ابن العديم إلى أن يخصّها بكتاب مفصّل على الحروف أولاً ، ومختصر على السنين ثانياً .

* *

(١) معجم البلدان ٣٠٩/٢

اسم المهدى إليه

رأى ابن العديم كثرة الواردين والوافدين إلى بلده، ورأى في خزائن حلب لعصره ما يشفي غلة المترجم ويبل الظمأ، فأراد أن يترجم لمن عاصره ويؤرخ لمن جاوره ، فأفرد لهم كتابه «بغية الطلب» ثم جمع إليهم القدماء السابقين فكانت مادة التاريخ الكبير فلما سار الكتاب بين العلماء والفقهاء والشعراء والأدباء ، وشاع ذكره في الملوك والأمراء طلب منه الملك العزيز (٦١٣ — ٦٣٤هـ) أن يصنع كتاباً على السنين ، وأن يختصر كتابه الكبير .

ولا بد من الاشارة إلى أن الصداقة بين المليك والمؤلف ، ولدت مع ولادة المليك ، فقد أنشأ فيه ابن العديم كتابه الدراري في ذكر الدراري — كما قلنا — وقدمه إلى والده الملك الظاهر سنة ٦١٠ هـ وكان الظاهر كثير الإكرام للصاحب ، يقبل عليه مع صغر سنه ، وكان الكمال يحضر مجالسه[1] . وقد رأينا أن المؤلف حين قدم «الدراري» صدّره بعبارة بعيدة عن التكلف غريبة على أكثر المؤلفين لعصره قال فيها : «فأحببت أن أخدمه بكتاب نفيس رائق المعنى أنيس» فجعل كتابه كعروس تزف ، لجمالها وحسنها .

فلما قضى الملك الظاهر غازي سنة ٦١٣هـ. انتقل الود إلى ابنه المليك العزيز ، واتصل الحب والتقدير حتى قدّم إليه «زبدة الحلب من تاريخ حلب» وجعل مقدمته هنا شبيهة بمقدمته في كتابه الأول ، فلا تكلف فيها ولا محاباة ، وقال : «وبعد، فان بعض من يتعين عليّ امتثال أمره ، ويجب عليّ الانقياد إلى موالاته وبرّه التمس مني تعليق ما وقع إليّ من ذكر أمراء حلب وولاتها ، وملوكها ورعاتها ، فسارعت إلى تحصيل غرضه» .

والغريب في الأمر أن ابن العديم لم يذكر اسم المليك العزيز كما ذكره في كتاب الدراري ، وذلك ، في رأينا ، لأن تأليف الكتاب استغرق زمناً ، توفي قبله الملك العزيز وذكر وفاته (كما في الورقة ٢٣٩ من المخطوطة) ، وكان على

---

(١) انظر الصفحة ٣١ السابقة.

التدبير « طغرل » لذلك أغفل ابن العديم ذكره متعمداً ، كأنه جعله لمن يدّبر أمر حلب . ولعل طغرل نفسه هو الذي التمس منه أول الأمر تأليفه وأراده له أو لمليكه ؛ فنحن نعرف أن طغرل كان يدبر الدولة ، فقد قال ياقوت : «ومالكها – أي حلب – في أيامنا هذه هو محمد بن الملك الظاهر غازي ابن الملك الناصر يوسف بن أيوب ومدّبر دولته والقائم بجميع أموره شهاب الدين طغرل ، وهو خادم رومي زاهد متعبد حسن العدل والرأفة برعيته لا نظير له في أيامه في جميع أقطار الأرض ، حاشا الإمام المستنصر بالله »[١] . وبذلك نجلو بعض الغموض في الاهداء ونفترض ما يسوقه إلينا الاستنتاج .

خطة الكتاب

جاء في لسان العرب[٢] أن : « الزَّبَد : زبد السَّمْن قبل أن يُسلا ، والقطعة منه زبدة ؛ وهو ما خلص من اللبن إذا مُخِض ... والزُبْدُ : بالضم خلاصة اللبن واحدته زُبْدَة » .

وجاء في اللسان كذلك[٣] أن : «الحَلَب استخراج ما في الضرع من اللبن يكون في الشاء والإبل والبقر . والحَلَبُ : مصدر حَلَبَها يَحْلُبُها حَلْباً وحَلَباً وحِلاَباً » .

ويقول ابن العديم نفسه في فاتحة الزبدة : « ورسمته بزبدة الحلب[٤] لأنه منتزع من تاريخي الكبير للشهباء المرتّب على الحروف والأسماء » فهو استخلصه من كتابه الكبير ، وشرح سبب تسميته له بإيجاز ، فهل نستطيع أن نعرف كيف انتزعه ، وما بين الكتابين من فرق في الخطة والمنهج .

---

(١) معجم البلدان ٣٠٩/٢

(٢) لسان العرب ١٧٥/٤

(٣) المصدر السابق ٣١٧/١

(٤) عند رضي الدين بن الحنبلي ، وفي كشف الظنون : « زبدة الحلب في تاريخ حلب » وصحيحها ما قال ابن العديم نفسه في فاتحة الكتاب .

نستطيع قبل كل شيء أن نوازن بين مقدمته في البغية ومقدمته في الزبدة . قال ياقوت : إن البغية تبحث في الملوك والأمراء وفي عمارة البلد ؛ وقد رأينا ذلك في الزبدة . وقال ياقوت : إنه يكتب « أخبار من كان بها من العلماء ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية » ، ولكن ابن العديم لم يتطرق إلى هذا في الزبدة . فالكتابان يتفقان في بعض الخطة ويختلفان في بعضها .

وقد رأينا في تحليلنا « البغية » أنها قاموس المحدثين والعلماء والكتاب والرواة وسنجد في تحليلنا الزبدة أنها تاريخ سياسي للبلد والدول كما نفهم من التاريخ السياسي اليوم .

فقد بدأ « الزبدة » في مقدمة موجزة بحث فيها تسمية البلد ، واختلاف العلماء حولها ، وتطرق إلى المشارقة والمغاربة لعهده فبسط نظرياتهم في اسم « حلب » مما يتفق والعلم الحديث اليوم . ثم ذكر بناءها وتاريخ البناء، ثم عرض إلى حلب في الزمن القديم فذكر في اقتضاب أسماء ملوكها من يونان ورومان .

فلما بلغ ولادة النبيّ وتطرّق إلى ذكر الخلفاء الراشدين ، ذكر الفتح وما وراءه من خبر خالد بن الوليد وعزله، ثم ذكر الولاة في حلب حتى جاء الأمويون فذكر وقائعهم وولاتهم وقصورهم في أطراف حلب وموقف البلد من حكمهم . وكذلك فعل في العباسيين فأورد أسماء ولاتهم وقضاتهم .

ولم ينس ابن العديم صلة مصر بحلب، فذكر الطولونيين والاخشيديين حتى تقلص ظل هؤلاء ، وقام من الشمال رجال تحدّروا من الموصل يريدون المدينة عاصمة ومستقراً ؛ فذكر سيف الدولة وحروبه ، وذكر ابنه سعد الدولة وحفيده سعيد الدولة وما وقع لها من معارك ضد المصريين .

فلما انتهى من الدول المصرية . والدولة الحمدانية ، انفرد وحده بين المؤرخين في تفصيل الأمر في المرداسية وهي دولة عربية ، نبتت من صميم الشام،حاربت المصريين حيناً وخضعت لهم حيناً ، ثم نهضت للروم حيناً وسكنت إليهم حيناً،حتى انقضت المرداسية وقامت العقيلية ، وتبعتهـا دول

أخرى سنفصل الأمر فيها حين نقدّم للجزء الثاني ، ففيه الحروب الصليبية وما أصاب الحلبيين من نعيم النضال وجحيم القتال ، إلى أن يقف به المطاف في حوادث سنة ٦٤١ هـ .

ذلك هو التاريخ السياسي لحلب ، ونحن لم نطلق الكلام إطلاقاً وإنما عنينا ما نقول . فقد فهم الرجل أحسن من يفهم تاريخ بلاده وأمته ، فشرح لنا كيف كانت حلب — أي سورية الشمالية — تتأرجح بين نفوذ المصريين حيناً ، وسيطرة بغداد حيناً ، وهجوم الروم أحياناً .

صوّر لنا أهمية البلد منذ عصورها الإسلامية الأولى ، تتنازعها الدول المختلفة كأنها تبدّل الكفة وترجح الميزان . ورسم لنا هجمات الروم البزنطيين حين يغيرون على الشام فيرتطمون على صخور حلب وكانت الحصن الحصين والشوكة النافذة ، والخطّ المدافع ضد هؤلاء القوم . وقد أحبّ الرجل أن يفهمنا من طرف خفي أن هجمات الروم كانت غزواً صليبياً للشام ، وأن الحروب الصليبية ابتدأت منذ عهد العباسيين في القرن الثاني للاسلام لا في منتصف القرن الخامس للهجرة . ولكن أسماء المهاجمين تبدلت ، وألبستهم تغيرت ، وأسلحتهم تطوّرت ، والغاية ما تزال هي الغاية والهدف ما يزال هو الهدف .

ذلك الذي أردنا من « التاريخ السياسي للشام » ولو أراد محدّث أن يكتب منصفاً في التاريخ الإسلامي لهذا البلد وحروبه ضد الروم والصليبيين لم يصنع إلا كما صنع ابن العديم .

وأحب أن أشير في حدود العلم التاريخي إلى أن القاضي ابن العديم كان منصفاً في تاريخه ، حيادياً في تأليفه ، ذكر المسلمين بما فيهم من عيوب وما لهم من فضائل ، وبسط الأمر في انكسارهم وفصّله في انتصارهم ، لم نقع له على مدح متجاوز أو قدح مُغْرِض ، ولم نر في أسلوبه أثر العاطفة الدينية والسياسية والاجتماعية .

وقد قال قبلنا مؤرخو الفرنجة من الألمان والفرنسيين حين قرءوا كتابه هذا انه قريب من نصوص المؤرخين المسيحيين ، وانه مطابق لما عند منصفيهم من خبر حقيق بالثقة جدير بالاعتماد والتقدير . ذكر ذلك فريتاغ وڤيلكن وميشو . ولن ننقل آراءهم فيه ، فلذلك موضعه من الجزء الثاني حين يبحث في الصليبيين.

ولمَ نُبعدُ في البرهان ، فنعتمد على آراء الغربيين ، وبين يدينا هذا الجزء الأول نستطيع أن نقرأه وأن نطيل النظر فيما قاله الرجل ، فقد أعلن حيناً أنه قرأ كتباً مسيحية ، قال : « وقال بعض المؤرخين من المسيحية[1] » . ونقل حيناً آخر عن كتب المنبجي ، ويحيى بن سعيد الأنطاكي ، وغيرهما من المؤرخين النصارى الذين أثبتنا نصوصهم في حواشي هذه الطبعة مقابلة لنصوصه ، لنبرهن على صدق الرجل وثقته .

وهو قد أغفل أسماء هؤلاء المؤرخين النصارى « في الزبدة » كما أغفل أسماء غيرهم من المؤرخين المسلمين كابن جرير الطبري ، وابن الاثير ، ومسكويه ، والمسعودي ، وابن عبد الحكم ، وابن شدّاد ، وابن طيفور ، والبكري ، والكندي ، وابن القلانسي وابن الجوزي ، وابن ظافر الأزدي .

ومردّ هذا الإغفال أن الرجل بسط لنا في مقدمته أن مصدره «تاريخه الكبير للشهباء المرتب على الحروف والأسماء » . وفي هذا المصدر فصّل الأمر ، وبسط القلم — كما قلنا — فأورد فيه أسماء مصادره ومؤلفيها ، وعدد أوراقها ، وأين وقعت له ، وممن نقلها . وما نظن أن مؤرخاً في المحدثين يصطنع التفصيل الذي اصطنع ، فيذكر لنا كيف قرأ ، وأنّى قرأ ، ومتى نقل .

وللقارئ أن يقرأ الحواشي ، وأن ينعم فيها النظر ، وأن يوازن بين ما صدر عنه وما جاء في غيره من التواريخ ، فسيرى أن ابن العديم قرأ كثيراً ونقل كثيراً ، وأحسن الايجاز والاختصار والترتيب .

وقد قلنا إن الزبدة مرتبة على السنين ، لكننا لم نقل إنها مرتبة ترتيباً ملتزماً

(١) انظر الصفحة ١٧ من الطبعة

غاية الالتزام . ذلك لأن كمال الدين رأى أن الحوادث تنقطع انقطاعاً إذا ما رتبها كذلك ، فلم حرص على تسلسلها وعدم تكرارها ، واستخلاص بعض الأحكام منها خالف بعض المخالفة هذا الترتيب فأجمل ما سبق ، وأوجز ما يأتي من السنين ، حتى اجتمع له أكثر الحوادث فيما يشبه الفصول ويقرب من الأبواب . ولعله في ذلك بلغ الذروة في التاريخ لعصره ، وربما سبق عصره وساير القرن العشرين وضوحاً وانسجاماً وترتيباً .

ذكر الروايات المتناقضة المختلفة حين تدور حول حادث واحد ، وسجل أقوال المؤرخين المختلفين فظهر عليه حيناً أسلوب المؤرخ الجامع وتفرد حيناً آخر بإيراد حوادث وتواريخ أخذها عن كتاب واحد ، لم يصل إلينا . ومن ينعم النظر في تاريخه يعلم أن الرجل قرأ كتباً صغيرة في سيرة الرجال ونسب الولاة، وحياة القضاة ، وقرأ كتباً كبيرة شاملة واسعة ، ومزج بينها فكانت الزبدة .

وعمد مؤرخنا إلى الأوراق القديمة والسجلات العتيقة ، والنقود الأثرية ، والأبواب والقناطر والأسوار والجدران ، فقرأ نقوشها وكتاباتها ونقلها إلينا نقلاً أميناً ، عن لغات عربية وغير عربية ، فاستعان بغيره في ترجمة اللغات الأعجمية ، ولم يغفل عن ذكر من ترجم له أو أعانه . وما نرى في ذلك ضيراً ، وإنما نرى فيه لابن العديم فخراً وأي فخر .

وإذا كنا نأخذ عليه أنه أخطأ في الأسماء اليونانية ، وفي تاريخ اليونان والرومان ، وترتيب ملوكهم ، وأمرائهم ، فاننا نشكر له هذه التفصيلات الدقيقة في مراسيمهم وحفلاتهم وملابسهم ومراتبهم وألقابهم وهداياهم وعاداتهم ، فقد حفظ لنا ذلك ونقله إلينا ، والغربيون أنفسهم يعودون إليه اليوم يتفقدون عنده من أمور البزنطيين والصليبيين ما لا يجدون في مصادرهم الغربية نفسها .

وإذا كنا نجد بعض الغموض في مواقع من الزبدة ، فمرد ذلك أنه ينقل عن غيره حيناً ، فيجيء النص بحروفه ، ويوجز حيناً حتى يصل به الأمر إلى حد التعمية والركاكة . وفيما سوى ذلك فابن العديم كاتب ناثر ، وشاعر يحسن القريض

– كما رأينا – وبلاغته ماثلة في كل صفحة، وفصاحته مشرقة في كل سطر إذا ما قورن بالمؤرخين الآخرين .

ولابن العديم فضيلة في تاريخه لا تقل عن بلاغته ، ذلك أنــه مؤرخ حقاً ينقل لنا العبارات المتداولة واللهجات السائرة ، والأقوال والحوار كما جاءت في القديم؛ فهو بذلك مرجع لمن يريد أن يدرس اللغات واللهجات على ممرّ القرون واختلاف البقاع ، والمناطق ، والأديان ، والمذاهب.

وقد يلاحظ أن ابن العديم يورد أشياء غريبة بعيدة عن العقل والمنطق ، لا يقبلها مؤرخ عاقل . وقد وقعنا في هذا الجزء الأول (صفحة ٧٢) على حكاية غريبة في طائر أبيض دون الرخمة وفوق الغراب تكلّم وصاح أربعين صوتاً ... فعجبنا للرجل كيف يؤمن بالأمر وكيف يورده من غير نقد لصاحبه فيحمل عنه الوزر ؛ فلما قرأنا « تذكرته » وجدنا النص نفسه ، وقد ذكره بالصفحة ٤٠٤ : « قرأتُ من كتاب شذور العقود: وقع طائر أبيض...»ثم تناوله بالشكّ .لذلك لا نستطيع أن نحكم على « الزبدة » إلا إذا ظفرنا بكتبه كاملة مطبوعة. ففيها المصادر والمراجع ، وفيها النقد والموازنة ، وأخصّ هذه الكتب البغية ، ثم التذكرة .

ونجد كذلك في هذا الجزء أشياء غامضة لا تحلّها غير كتبه الأخرى ، ففي الصفحة ٧٠ ، يتساءل المرء عن سبب البيت : يا قبلة ذهبت ضياعاً في يد . وتفسيرها في التذكرة؛إذ يشرح أن الشاعر المذكور قبّل يد ممدوحه بغية النوال فلم يعطه فأسف لقبلة ضاعت في يده ، ودعا على هذه اليد .

ويطول بنا الأمر إذا ما عجنا إلى كل عبارة في الكتاب نردّها إلى مصدرها، وقائلها ، وشرحها ، وإنما نحيل القارئ إلى كتاب « بغية الطلب » ففيه توضيح وتفصيل وهو يظهر على الطباعة في موعد قريب.

ونحن حين نقول هذا نريد أن لا يحكم القارئ على كتاب « زبدةالحلب » بأنه سردلحروب وقائمة بالمعارك ، وصورة للنضال فحسب ، ففيه غير هذا، ولكنه حافل بهذه الأخبار المثيرة ، لأن الرجل أراد أن يصف موقف حلب السياسي

بين المنازع السياسية المختلفة في ذلك العهد ، والتيارات المتباينة ، طوراً تدفع المصريين عن حلب ، وطوراً تدفع الروم ، وحيناً تخرج على الخلافة ببغداد ، وحيناً تخضع لها . ويصف الهدايا والرسائل التي كانت تقرب بين الممالك ، ويذكر أسباب النزاع والتخاصم ، وشروط الهدنة وأخبارها .

شهرة الكتاب

ظلمت المصادر العربية هذا الكتاب ، فتحدث عنه ابن شدّاد[1] في القرن السابع ، وسكت عنه القرن الثامن والتاسع ؛ فلما كان القرن العاشر ذكره رضيّ الدين بن الحنبليّ[2] (المتوفى سنة ٩٧١ هـ) وتبعه حاجي خليفة (المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ) فنقل عنه[3] .

ويبدو أن ابن الحنبليّ وحده اهتم بالكتاب وقدره حق قدره ، فلخصه وزاد عليه وسمّى ما عمله : « الزبد والضرب في تاريخ حلب »[4] . فلم نقع قبل ابن الحنبلي على من عُني بالكتاب وأفاض فيه . والسبب في ذلك أن الكتاب والمؤرخين خلطوا بين كتابي ابن العديم ، حين رأوا أن كلاًّ منهما في تاريخ حلب وبقي هذا الوهم حتى العصور المتأخرة ، فأخطأ كثيرون في وصفهما وتمييزهما ، وظن كثيرون أنهما كتاب واحد ، حتى لقد وَهِم بعضهم فظنّ أن الزبدة طُبعت منذ زمن غير قليل .

أما في الغرب ، فقد عكف المستشرقون على دراسة الكتابين منذ زمن بعيد ، فترجموا منهما ، ونقلوا عنهما ؛ إذ نشروا من « البغية » قسماً غير قليل في مجموعة الحروب الصليبية ، سنة ١٨٨٤ ، وحثّوا على جمعها . وفي القرن العشرين ، سافر إليها المستشرق سوفاجه وقصد استانبول لدراستها وتحليل أجزائها ، واستفاد منها في كتابه الكبير عن حلب ؛ وسافر الأستاذ كلود كاهين كذلك فأسهب في الاقتباس منها .

(١) انظر حاشية الصفحة ١٧٦ من طبعتنا .

(٢) در الحبب في تاريخ حلب ، مخطوطة الأوقاف في حلب ، بالورقة ١ ظ

(٣) كشف الظنون ، الطبعة الأخيرة ٢ / ٩٥٣

(٤) عندنا نسخة الكتاب ، وفي حواشي هذه الطبعة بعض أوصافه وعباراته .

ولكن حظ « الزبدة » كان أوسع من حظ أمها فقد لقيت من المستشرقين والمؤرخين في الغرب عناية كبيرة تفوق عنايتهم بالبغية ، ومرد ذلك في رأينا إلى أن أجزاء البغية متفرقة في المكتبات موزعة في البلدان ، أما نسخة الزبدة فهي متيسرة موجودة في باريس من السهل الرجوع إليها والنقل منها .

وقد بدأت العناية بها منذ أواخر القرن الثامن عشر ، إذ عكف عليها المؤرخ « برترو »[1] وهو يكتب في الحروب الصليبية ، فكلّف المستشرق سلفستر ده ساسي ، وكان شاباً آنئذٍ ، أن يقوم بترجمة السنين ٤٨٨ — ٦٤٠ هـ فقام الرجل بالعمل خير قيام ، وترك ما عمله لغيره ، فاستقى منه المؤرخ «ڤيلكن» لتاريخه عن الصليبيين ، وأثنى على الكتاب وامتدح ابن العديم[2] . وثنّى المؤرخ ميشو على مديح « ڤيلكن » في كتابه عن الصليبيين . وكذلك فعـل المؤرخ رينو فيما بعد .

غير أن فريتاغ هو المستشرق الأوحد الذي عُني بالزبدة عناية كبيرة وخصّ أكثر جهده بدراستها وترجمتها . قدم باريس في بعثة علمية لذلك ، وباشر عمله سنة ١٨١٥ للميلاد ، فنقل الزبدة كلها ، وعرف نسختها وهي أحسن حالاً مما وصلت إلينا ، لم تسئ إليها الرطوبة كما أساءت فيما بعد ، ولم يفعل البلل بالمداد ما فعل بها ، فوعد أن ينشرها نشراً علمياً على طريقة عصره .

لذلك بدأ بنشر قسم منها مبتدئاً بفتح خالد لحلب ، منتهياً بحروب سيف الدولة ، أي من حوادث سنة ١٦ هـ — ٣٣٧ هـ ، من الورقة ٦ و — ٣١ ظ[3] .

وقدّم المستشرق للكتاب باللاتينية مقدّمة علمية نافعة ، حلّل فيها الزبدة ومؤلفها وأسلوبها ، وفائدتها ، وامتدحها امتداحاً كبيراً . وترجم النصّ العربيّ كذلك إلى اللاتينية وعلّق عليه تعليقات واسعة باللاتينية كذلك ، مما يشبه أسلوب

---

(١) Dom Berthereau

(٢) Wilken, *Commentatio de Bellorum Cruciatorum*. Gottingae, 1798.

(٣) انظر الصفحات (٢٧-١٣٠) من كتابنا هذا .

عصره . وقد طبع المخطوطة كما وقعت له من غير تصويب أو تخريج أو ترقيم أو تعليق ، فكأنّ الطبعة صورة للنسخة حرفياً ، ونشره سنة ١٨١٩[١] .

وفي السنة التالية نشر فريتاغ قسماً آخر من المخطوطة يستغرق تسع ورقات فحسب ، أي من الورقة ٤١ و – ٤٩ و ، في حوادث ٣٥٦ – ٣٨١ هـ ، وهو القسم الخاص بسعد الدولة ابن سيف الدولة[٢] ، وقدّم له بالألمانية وعلّق عليه ، وطبعه على الحجر نقلاً عن خط كتبه بيده ، وذلك لعدم وجود مطبعة عربية في « بون » من أعمال ألمانيا سنة ١٨٢٠[٣] .

وفي سنة ١٨٢٣ نشر فريتاغ ثلاث ورقات من المخطوطة ، أي من الورقة ٤٩ و – ٥١ ظ : من حوادث ٣٨١ – ٣٩٢ هـ[٤] ، وهو القسم الخاص بسعيد الدولة حفيد سيف الدولة . وظهر هذا القسم باللاتينية في ذيل كتاب ترجم فيه أمثال لقمان[٥] ، وأراد أن ينشر فيه نماذج من التاريخ فكان اختياره من ابن العديم .

ويبدو أن جهد المستشرق فريتاغ دفع زميله مولّر إلى ترجمة فصل كبير من الكتاب من حوادث سنة ٣٩٤–٤٧٢ هـ ، فظهرت الترجمة باللاتينية في سنة ١٨٣٠[٦] . واكتفى المستشرق فيه بنشر الترجمة ، مغفلاً النصّ العربيّ ، فبقي حتى الآن لم يُنشر[٧] .

وقد اتفق المستشرقون في الحكم على هذه الترجمة ، فقالوا إنها لا تفي بالغرض

(١) Freytag, *Selecta ex Historia Halebi*, Lutetiae Parisiorum 1819, 56 p. texte arabe ; 56 p. introduction ; 174 p. traduction, notes et tables.

(٢) انظر الصفحات (١٥٥–١٨١) من كتابنا هذا .

(٣) Freytag, *Regierung des Saahd aldaula zu Aleppo*, Bonn 1820, 26 p. texte; 39 p. traduction et notes.

(٤) انظر الصفحات (١٨٥–١٩٣) من كتابنا هذا .

(٥) Freytag, *Locmani fabulae et plura loca ex codicibus maximam partem historicis selecta in usum scholarum arabicarum*, Bonnae 1823.

(٦) Müller, *Historia Merdasidarum ex halebensibus Cemaleddini Annalibus excerpta*, Bonnae 1830.

(٧) انظر الصفحات (١٩٥–٢٨٨) من كتابنا هذا .

ولا تقوم على صحة وعناية . فقد ابتعدت عن الأصل في كثير من المواقع ، وخالفت المراد في كثير من الصفحات. ولكنها على كل حال المصدر الأوحد المتداول عند المستشرقين في تاريخ المرداسيين ، بل هو المصدر الأوحد كذلك عند العرب. فابن الأثير تحدث عن المرداسيين في صفحتين اثنتين ،وأشار إليهم ابن القلانسي وهو مؤرخ دمشق إشارة موجزة ، وابن كثير لم يذكر عنهم إلا سطوراً. وأما ابن خلكان وياقوت فقد ترجما لشعرائهم وبعض أمرائهم تراجم مختصرة .

وفي سنة ١٨٣٤ عاد المستشرق فريتاغ إلى نشر فصول أخرى قصيرة من الكتاب ، كمباحث مختارة غير مشفوعة بتعليق أو ترجمة ، من حوادث (٥٨٧هـ – ٥٨٩) ومن حوادث (٦٣٤ – ٦٤١ هـ)[١] ولكن ذلك ظهر في شكل مقتطفات .

وظهرت بعد ذلك في سنة ١٨٨٤ ترجمة لفصل كبير من الكتاب في حوادث سنة ٤٩٠–٥٤١هـ في مجموعة المؤرخين للحروب الصليبية[٢] ، صنعها المستشرق ده مينار وقد نشر النص العربي في أعلى الصفحة ، وفاق خطة المجموعة في ضم النصوص العربية المتعلقة بالحروب الصليبية بعضها إلى بعض وترجمتها إلى الفرنسية تأريخاً لهذه الحروب وعوناً للمصادر الغربية . وقد ظهر قسم من هذه الترجمة قبل ذلك الحين على يد المستشرق سلفستر ده ساسي في مجموعة ألمانية للحروب الصليبية ، وذلك في سنة ١٨٧٤ . [٣]

ونشر المستشرق بلوشه ترجمة لحوادث السنين ٥٤١ – ٦٤٠ هـ من الزبدة ، في كتابه تاريخ حلب ، صدر في الفرنسية ، ولكنه لم يحقق الهدف العلمي ولم يبلغ الأمانة الحقة في الترجمة[٤] .

(١) Freytag, *Chrestomathia Arabica Grammatica Historica*, Bonnae 1834, p. 97-138.

(٢) *Recueil des Historiens Orientaux*, Paris 1884, tome III, 577-690.

(٣) Röhricht, *Beitrage zur Geschichte der Kreuzzüge*, Berlin 1874.

(٤) *Revue de l'Orient Latin*, 1896, p. 509-565, tirage à part : *Histoire d'Alep*, par Blochet, Paris 1900.

وفي القرن العشرين اعتمد مستشرقان على الزبدة وترجما منها ، وهما كانار وهونيغمان ، فقد نقلا من النصوص ، وترجما في بحوثهما عن عصر الحمدانيين والمرداسيين .

* * *

هذه كلمة مقتضبة حول عناية الغربيين « بزبدة الحلب » لم نشأ أن نسهب فيها باطلاق الاحكام أو مقابلة الأصل بالترجمة أو الحكم على أهداف المترجمين وطرقهم وأساليبهم . ولكننا أنشأناها لندلّ على أن المستشرقين أخذوا من فصول الكتاب ما وسعهم منذ فجر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ، ترجموا منه تارة ، ونشروا من نصوصه تارة أخرى ، فأخذوا فصلاً وأهملوا فصلاً ، ولكنهم قرءوه جميعه ، وتتبعوا ما قال ابن العديم حول الصليبيين خاصة ، فقد كان الرجل قريباً من مواطن النزاع ، متعلقاً بأسباب التاريخ ، واقفاً على النصوص القديمة والحديثة ، وكان مع ذلك على صلة بالملوك والأمراء الذين كانوا يشنون الحروب ، ويقومون للدفاع عن أرض الوطن .

وما رأينا من هؤلاء المستشرقين من نقد الرجل فأخذ عليه تحزبه أو تعصبه أو خروجه عن حدود التأريخ العلمي ، فهو يروي حوادث الصليبيين في حياد — وهو قاضي المسلمين — كما يرويها مؤرخوهم حين ينشدون وجه الله والحقيقة .

نشر المستشرقون هذه الفصول وترجموا منها في زمن قديم ، وأصبح ما ترجموه وما نشروه أشبه بالمخطوط منه بالمطبوع لأن النسخ نادرة والطبعات مفقودة وليس من اليسير الوقوف على نسخة منها أو اقتناؤها . وهي على ذلك متنوعة ، بعضها في مجموعات كبيرة ومجلات ، وبعضها في كتب صغيرة ونشرات ، وهي باللاتينية والألمانية والفرنسية . ومع ذلك فهي ناقصة مبتورة لا يعتمد عليها ولا يؤخذ بها تنقصها الدقة والفهم .

وليس من فخر للشام ومؤرخيه أن يبقى الكتاب في رفوف المخطوطات يُعنى به الغربيون قرناً وبعض القرن ونحن عنه غافلون . وليس من الفخر كذلك أن نترجم عنهم ما قالوا في حلب ودولها الاسلامية ، والينبوع عندنا والمصدر في متناول أيدينا .

لذلك أخذنا بنشره ، وطمحنا إلى العناية به عناية لا تقل عن عنايتهم في التحقيق والتدقيق والاخراج والفهرسة ، فالمخطوطة قريبة منا نستطيع أن نسافر لها فنحظى بها . وما هو إلا أن نعبر البحر الأبيض المتوسط حتى نبلغ باريس ونملك النسخة ، ونقول : « هذه بضاعتنا رُدت الينا » .

وصف المخطوطة

في العالم من الزبدة نسختان :

١ — **نسخة لننغراد** ، رقم ١٦٠ ، من مجموعة (روسو) وعبارة الختام فيها : «كتبت هذه النسخة من نسخة كتبتْ من خط مؤلفها المولى الصاحب كمال الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة الحلبي — رحمه الله تعالى ورضي عنه — وهذا آخر ما وجده بخطه : وكان الفراغ من تعليقها نهار الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان المعظم من شهور سنة ثلث وستين وثمانمائة والحمد لله وحده وصلى الله . . . »(١)

وهي في ١١٩ ورقة ، بحجم ٢٦ × ١٧ سم ، في كل صفحة ٢٣ سطراً . وأضاف المستشرق روزن بأنها نقلت عن نسخة باريس .

ولما قابلنا بين الوصفين بدءاً وختاماً ، ووقفنا على النواقص والخرم حكمنا بأن المستشرق أصاب كبد الحقيقة في وصفها ، فنسخة باريس هي الأصل وهي التي نعتمد عليها أساساً .

(١) *Notices sommaires des manuscrits arabes du Musée Asiatique*, par Rosen, St-Pétersbourg 1881, p. 98.

٢ – **نسخة باريس** ، رقم ١٦٦٦ ؛ (الرقم القديم ٧٢٨ مخطوطات عربية) عدد أوراقها ٢٦٨ ، بحجم ٢٥×١٧،٥ سم ، في كل صفحة ١٧ سطراً[1] .
وعبارة الختام فيها ، بالورقة ٢٦٨ و :

« يقول كاتبها كُتبت هذه النسخة من خط مؤلفها المولى الصاحب كمال الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن هبة الله بن ابي جرادة الحلبيّ – رحمه الله تعالى ورضي عنه – وهذا آخر ما وجدته بخطه ، وذلك لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ست وستين وستمائة أحسن الله خاتمها ، والحمد لله وصلاته على نبيه وآله وسلم » .

فالنسخة كتبتْ بعد ست سنوات من وفاة ابن العديم على نسخة كتبها كمال الدين بخطه . وقد رأينا في أطراف الصفحات ٢٩ ، ٦٩ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١٤٩ ، ٢٤٤ : « بلغ مقابلة بخط المؤلف رحمه الله » . وفي الصفحة ١٦٩ : « بلغ مقابلة بالأصل المكتوب منه » . وفي ختام النسخة : « بلغ مقابلة بالأصل المستنسخ منه المكتوب بخط مؤلفه رحمه الله ».

وهذا يدل على أن النسخة قوبلت مقابلة دقيقة ، وأنها نقلت نقلاً صحيحاً عن نسخة المؤلف بخطه ، فهي نسخة ثمينة . وقد قرأنا على الوجه الأول منها بخط قديم : « من كتب الفقير محمد الحموي » على الرغم من أن بائعها حاول إخفاء الاسم فرمج عليه وسعى إلى محو معالمه . وما نحسب إلاّ أن محمداً هو السابق الحموي الذي جاء اسمه كذلك على مخطوطة « بغية الطلب » ، وقد بسطنا ذلك قبل صفحات .

وعلى الغلاف بالورقة الأولى من المخطوطة عبارة كتبت بخط مختلف متأخر : « قري في هذا الكتاب بطرس بن ديب الحلبي من طايفة الملكية رحمة الله عليه وعلى أهله وعلى قاري ذا الخط في باريس في بيت الوزير كولبيرت سنة ألف وستمية وثمانين مسيحية » .

فالنسخة إذاً قد سافرت إلى باريس فاستقرت فيها ، ولسنا ندري هل

(١) *Catalogue des manuscrits arabes*, par de Slane, Paris 1883, p. 311.

عرجت على سورية أم حملت من مصر رأساً. ولكننا نعلم أن فرنسة كانت تستقدم بعثات علمية من الشرق في القرن السابع عشر، في عهد الوزير كولبير السياسي الشهير[1] ، ونحسب أن بطرس بن ديب المذكور كان في عداد الذين سافروا إلى باريس ودخلوا « مدرسة الألسنة » لذلك العهد ، ولا شك في أن تاريخ بلده استهواه فقرأه . وقد بحثنا في مطرانية حلب للروم الكاثوليك فلم نقع على اسمه في سجلاتها ، ذلك لأن القديم من هذه السجلات قد فقد فلا سبيل إلى الوقوف على اسمه وأسرته .

وعلى الطرف الثاني من الغلاف كتابة بالفرنسية بخط المستشرق سلفستر ده ساسي ، يترجم العنوان ويصحح اسم الكتاب ، وينتقد العسكري الماروني الذي حسبه « زبدة الجلب » بإعجام الحاء .

وقد نشرنا في ختام المقدمة صورة لهذه الأوراق الثلاث : الأولى والثانية والأخيرة ليقف القارئ على المراحل التي مرت بالنسخة ، وليعرف قراءها والمهتمين بها ، ولينظر في أسلوب كتابتها وخطها .

فهي مكتوبة بخط جميل واضح وورق صقيل قويّ ، مضبوطة بالشكل في أكثر كلماتها ، وربما طغى الشكل حتى أصبح من التزيينات يعلو الراء والسين والكاف واللام وغيرها ، حتى يخيّل إلى القارئ أن هذه الحروف منقوطة ، ذلك عدا عن المبالغة في رسم النقط فوق الحروف أو تحتها ، والمدّ والتنوين.

والناسخ على اهتمام عظيم بما يكتب قد عُني بنسخته عناية فائقة كست كتابته جمالاً وحسناً ، ولا يكاد الناسخ يخطئ إلاّ لسهو أو زلل أو حين يعمّى عليه فهم الأسماء الأعجمية والضمائر المتلاحقة ، وهو فيما عدا ذلك متقن مجيد .

تلك حال النسخة حين أسلمها كاتبها إلى الأجيال فعملت فيها الأيام ما تعمل في المخطوطات ، وتعاورت عليها الرطوبة والماء فعمّت أكثر الصفحات وأكلت

(١) ولد كولبير سنة ١٦١٩ م . ومات سنة ١٦٨٣ م . وكان وزير لويس الرابع عشر ، وقد استفاضت شهرته حتى ملأت تاريخ فرنسة .

كثيراً من الكلمات ثم أصابها الخرم فشوّه من جمالها ونقص من كمالها، وأضعف الثقة بها، وحال دون اليسر في قراءتها وفهمها.

ولن نعمد إلى وصف الحروف وطريقة الكتابة لأن النماذج المصوّرة تغني عن ذلك. ونظرة إلى التعليقات في أسفل الصفحات ترشد المطالع إلى صفة الأوراق، وما عليها من هوامش وما كتب على أطرافها من فوائد.

طريقة الطبع

إن حال النسخة وما وصلت إليه اضطرنا إلى أن نعوج على المؤرخين نسألهم فهم بعض الجمل وإكمال بعض الكلمات وتصويب الأسماء الأعجمية والعربية وحفزنا إلى أن نوازن بين جملهم وعباراتهم وما بين يدينا من عبارة ابن العديم وأن نثبتها في ذيل الصفحات لعل القارئ يثق بما يقرأ ويؤمن بما يرد في الكتاب.

فلما بلغنا الخرم الواقع بين الورقة الثامنة والتاسعة، وقرأنا في صدر الصفحة هذه العبارة مكتوبة بخط متأخر: «من هنا مفقود كراسة» حرنا فيما نصنع، وظننا أن الأصل المنقول عنه كان كذلك. فاذا بالورقات الباقية وقد أصابها البلل وانطبعت عليها سطور في الهامش لم تقع في الصفحة المقابلة الباقية. عند ذلك عرفنا أن الورقة الأصيلة قد طارت وبقي شبحها بتأثير الماء والمداد، وقطعنا بأن الأصل كان كاملاً غير منقوص.

وافترضنا في غير هذا المكان أن الناسخ وقف عند عبارة: «إلى أن مات وأقام[1]» ثم ترك العمل، فلما عاد إليه نسي الورقة وتعداها إلى غيرها، فنقل «أن مات عبد الملك[2]» ثم افترضنا غير ذلك مما لا ينجي من الخرم الواقع، ولا يمكن من نشر الكتاب مبتوراً.

فعجنا نستنجد بنسخة لننغراد في روسية، وحاولنا أن نصل إليها فلم نُفلح،

(١) انظر الصفحة ٤٣ من كتابنا هذا.

(٢) انظر الصفحة ٤٥ من كتابنا هذا.

وكاد الأسف يضطرنا إلى وقف النشر حتى تبلغنا النسخة ، فلما قرأنا مقدمة فريتاغ لما نشره من الزبدة — وقد سبقنا إلى قراءة المخطوطة ، قرابة قرن وربع القرن — عرفنا أن الرجل حار كذلك واستنجد بنسخة لننغراد كذلك، فاذا به يقص علينا كيف كانت نتيجة تحرياته . قال إن نسخة لننغراد بيعت في فرنسة في جملة ما باع روسو من مخطوطات ، وسافرت هذه النسخة إلى مرسيليا في انتظار من يحملها إلى روسيا ؛ فقد اشتراها امبراطور روسيا آنئذٍ حوالي سنة ١٨١٥ م ، فكلف فريتاغ صديقه المستشرق « رينو » أن يفحص النسخة قبل السفر وأن يقابل النقص فيها ، فإذا بصديقه يسافر إليها ويفحصها ، ويجد النقص قد وقع في منتصف الصفحة ، وأن السطر لاحق بالسطر من غير أن يشعر ناسخها بنقص أو خرم . وهذا ما دفع المستشرقين إلى الاعتقاد بأن الناسخ نقل عن نسخة باريس ، فلم يحسن ، ولم يصحح وإنما تكررت النسخة في غير عناية أو اهتمام[1] .

لذلك صرف المستشرق نظره عن النسخة المسافرة إلى لننغراد وعرف أنها لا تضيف أمراً ولا تعين في حلّ مشكلة . وهذا ما فعلناه فصرفنا اهتمامنا إلى نسخة باريس نعتمدها وحدها أصلاً ومرجعاً .

واستسلمنا إلى المصادر التي نقل عنها ابن العديم نجمع منها المادة الضائعة ، وقد حسبنا مقدار ما ضاع وفاق خطة المؤلف وذكره للملوك والولاة والقضاة ، فإذا هي لا تزيد على ورقة كاملة . وعدنا إلى الكتب المتأخرة التي نقلت عن ابن العديم أو أفادت من مظانه التي لم تصل إلينا ، فصوبنا عنها وأكملنا حتى كانت مادة هذه الورقة التي قضينا في البحث عن إنشائها زمناً غير قليل ، حرصاً على لغة الرجل وأسلوبه وسياق تاريخه ، وخوفاً من أن نبتر سير الخلفاء الأمويين ، وهم عند ابن العديم لم يستغرقوا أكثر من ورقات ثلاث في المخطوطة الأصيلة .

وليس هذا الذي أكملناه فحسب ، وإنما أكملنا جملاً أخرى في تضاعيف

(١) انظر Freytag, *Selecta*, Introduction, 6.

التاريخ تجدها في مواقعها من الكتاب بين حاصرتين < > . وقد جعلنا أرقام الأوراق في بدئها يفصلها عن سابقتها خطان عموديان || أمانة في تصوير النسخة كما وقعت لنا ، لنشرك القارئ معنا .

وقد كتبنا في أعالي الصفحات اسم الدولة أو المالك أو الحاكم الذين تتحدث عنهم الصفحة ، وذكرنا إلى جانبه التاريخ الذي تقف عنده الصفحة ليكون الكتاب كقاموس ميسّر بالعنوان أو بالتاريخ يرجع إليه القارئ حين يريد معتمداً على السلالة الحاكمة أو تاريخ حكمها أو اسم العامل والمالك فيها .

* * *

التبويب

وقد حرصنا أشد الحرص على الأصل المخطوط فلم نبدل فيه إلا حين نقع على خطأ أو تصحيف ، ولم نضف إليه إلا حين نرى النقص حائلاً دون الفهم والسياق .

وقد أضفنا العناوين الضخمة والصغيرة تيسيراً وتوضيحاً وتسهيلاً ليس غير، من غير أن نمسّ جوهر الكتاب ، ولم نشأ أن نضع بين حاصرتين ما أضفناه لأن أكثره من ابن العديم نفسه في كتابه بغية الطلب ، ونكتفي هنا بالتنبيه على ذلك . وقد اعتبرنا إضافتنا العناوين كاضافتنا الترقيم، فكلاهما ناقص في النسخة وكلاهما ضروري لطبعة نحاول أن تكون واضحة مشرقة.

فالنسخة المخطوطة تبدأ وتنتهي من غير أن تعرف تبويباً أو تقطيعاً أو وقفاً ذلك لأنها مسوّدة كتبت في القرن الثالث عشر ، ولكننا حين نبيّضها في القرن العشرين لا نستطيع أن نقصّر أو نتأخر عن ركب الثقافة العالمية ولو كلفنا ذلك من أمرنا عسراً. فليس من السهل أن تتحكم في عبارة غيرك، وليس من اليسير أن تبوّب تاريخاً لم يبوبه صاحبه، بل ليس من الهين أن تقطع حيث تريد وتصل حيث تريد.

وشفيعنا أننا حين نظرنا في «تاريخه الكبير للشهباء» واستعرضنا عبارته فيه رأينا أن الرجل يبوّب فيحسن ويقسم فيجيد، ويذكر في المفصّل عناوين كثيرة وأجزاء عديدة ، فأردنا أن نقتبس من طريقته فنفعل لتاريخه الصغير ما فعل هو نفسه

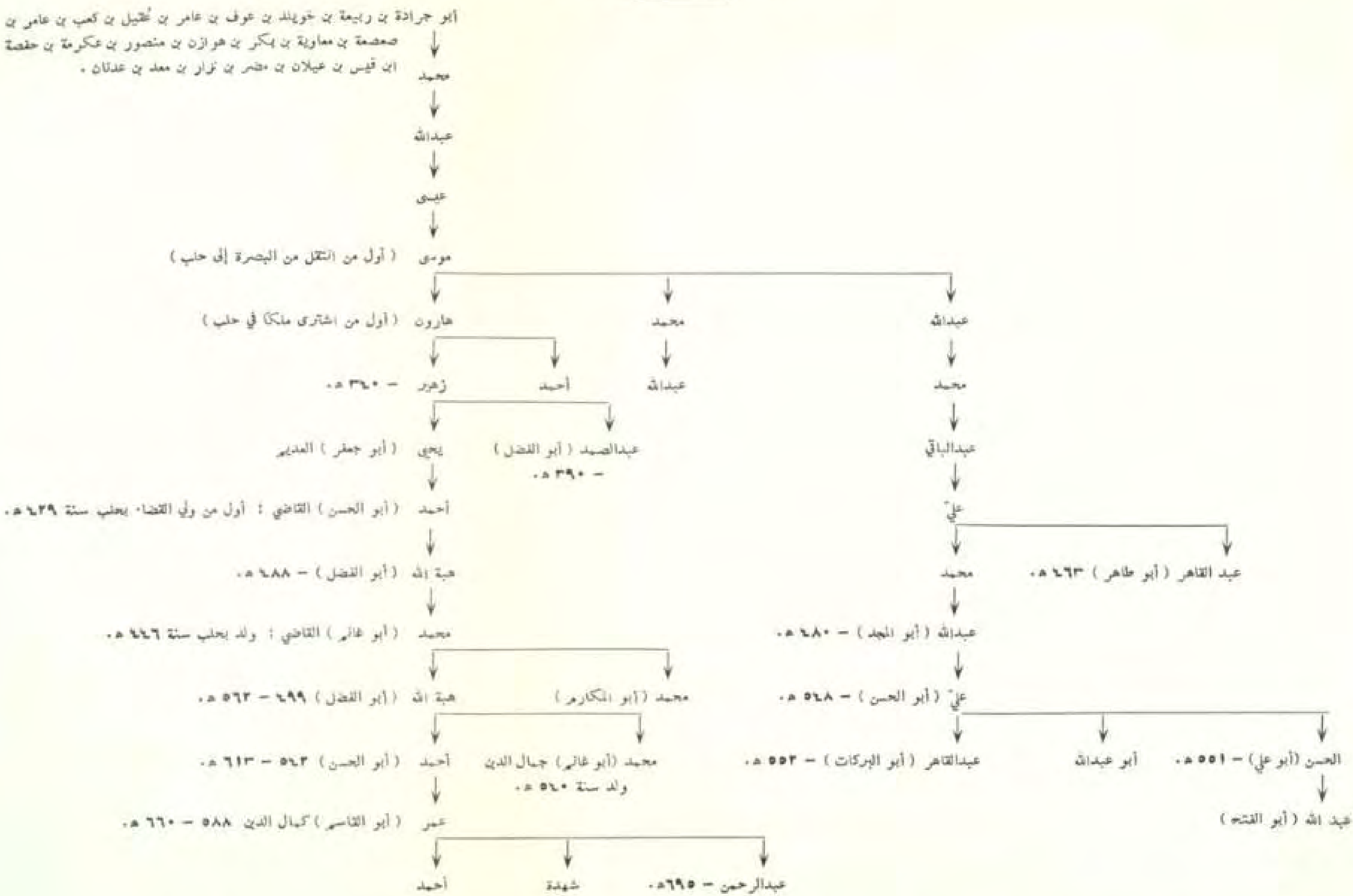
لتاريخه الكبير ، واصطنعنا عناوينه نفسها ؛ ونحن مؤمنون أنه لو أتيح له أن يرجع إلى الزبدة ، وأن يعيد النظر فيها ويخصّ وقته بها لفعل قريباً مما فعلنا . ولكن الظروف السياسية لعصره حالت بينه وبين ذلك . فانصرفنا إليه راضين بالجهد والعناء لعل من ورائهما الخير الذي أراده ابن العديم لكتابه والنفع الذي تصوّره لتاريخه ، وعملنا بسنة النشر العلميّ في حرص بالغ وخوف مسرف وشكّ ملحّ ، لنتقرب من الكمال ونستهدف الصواب ؛ وما ندعي القوة والابداع وإنما فعلنا ما نستطيع مما وصل إليه علمنا ، وهدانا إليه جهدنا.

وما نريد من وراء هذا العمل إلاّ خدمة الوطن واللغة والتاريخ فنؤدي زكاة العلم ، ونرد إلى حلب فضل ما أهدت حلب إلينا ، ونقوم لها بما وجب علينا ، والله من وراء القصد له الحمد والشكر والمنّة .

دمشق الشام في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٧٠
و ٣٠ كانون الثاني ١٩٥١

سامي الدهان

نسب آل العديم من بني أبي جرادة (1)



(1) رسمنا جدول النسب عن كتاب « الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة » لابن العديم ، كما رواه ياقوت ونقله إلينا في معجم الأدباء ، وأكملنا ما بقي عن كتب ابن العديم نفسها .

لوحة رقم ١



نسخة الأصل — نموذج للورقة الأولى من مخطوطة باريس رقم ١٦٦٦ (انظر مقدمتنا)

لوحة رقم ٢



نسخة الأصل – نموذج للورقة الثانية من مخطوطة باريس رقم ١٦٦٦ (انظر ص ٥–١١)



نسخة الأصل – نموذج للورقة الأخيرة من مخطوطة باريس رقم ١٦٦٦ (انظر مقدمتنا)

لوحة رقم ٤



نموذج لخط كمال الدين بن العديم في كتابه «التذكرة» — انظر الصفحة [م ٤١] من مقدمتنا